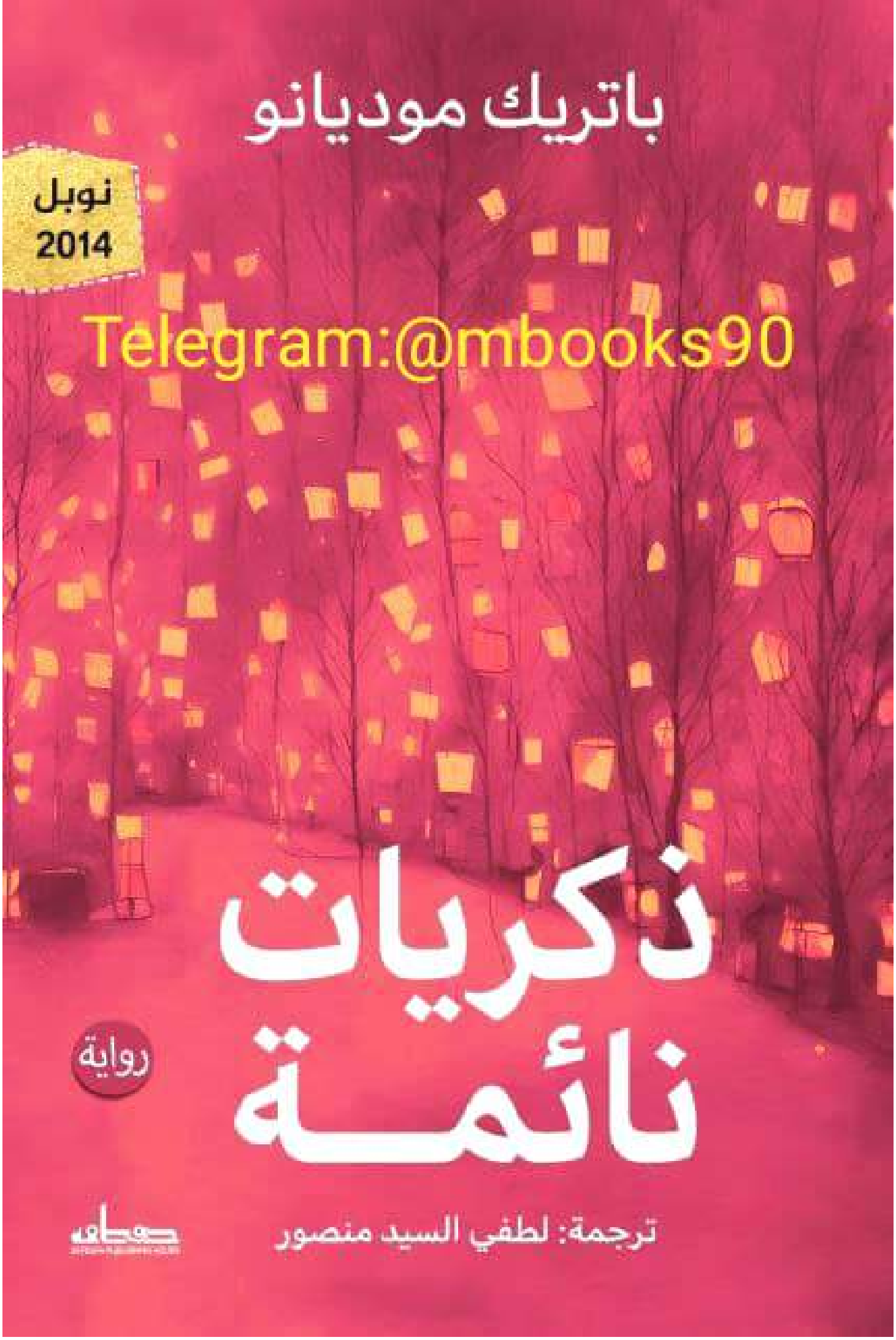

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لطفي السيد منصور/ مترجم وكاتب مصري من مواليد 1970، ترجم العديد من الأعمال الفرنسية المميزة منها روايات "تقرير برووديك" للفرنسي فيليب كلوديل؛ "نوتردام النيل" للرواندية سكولاستيك موكاسونجا و"المغفلون" للفرنسي إريك نويوف، وغيرها من الأعمال.

ذكريات نائمة

طبعة 2024

رقم الإيـــــداع 2024/5238

الترقيم الدولي 978-977-821-399-7

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

Souvenirs dormants by Patrick MODIANO © Editions GALLIMARD, Paris, 1997

C'et ouvrage a bénéficié du soutien du Programme d'aide à la publication de l'Institut Français et du programme Taha Hussein de l'Institut français d'Egypte.

حظي هذا العمل بدعم من برنامج دعم النشر الخاص بالمعهد الفرنسي وبرنامج طه حسين الخاص بالمعهد الفرنسي بمصر

INSTITUT FRANÇAIS
Egypte

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

ذات يومٍ، على أحد الأرصفةِ، لفتَ انتباهي عنوانُ كتابٍ: وقت اللقاءات. بالنسبةِ إليّ أيضًا، كان ثمة وقتٌ للقاءات في ماضٍ بعيدٍ. في تلك الفترة، كنتُ كثيرًا ما أخاف الفراغ، لم أعانِ هذا الدوار عندما كنت بمفردي، ولكن، تحديدًا، برفقة بعض الأشخاص الذين، التقيت بهم مؤخرًا، حدّثت نفسي لأطمئنها:

سوف تسنح فرصة للهروب من صحبتهم. بعض هؤلاء الأشخاص، لم تكن يعرف إلى أي خطر يقودونك، كان المنحدر زلقًا.

يمكنني التحدث أولًا عن أمسيات أيام الآحاد. لقد كانت مصدرَ قلقٍ لي، وكذلك بالنسبة إلى كل أولئك الذين عانوا العودة إلى المدرسة الداخلية في الشتاء، في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، مع حلول نهاية النهار. وبعد ذلك، يطاردهم هذا في أحلامهم، وأحيانًا لبقية حياتهم. في مساء الأحد، كان قليل من الناس يتجمّعون في شقة مارتين هيوارد، وكنت من ضمنهم، كُنت في العشرين من عمري، ولم أشعر أنني في مكاني على الإطلاق، سيطر عليّ شعور بالذنب، وكأنني ما زلت تلميذًا في المدرسة: بدلًا من العودة إلى المَدرسة الداخلية، كنت قد هربت.

أينبغي حقًا أنْ أتحدث الآن عن مارتين هيوارد، والقليلِ من الأفراد المتباينين، الذين كانوا يحيطون بها في تلك الأمسيات؟ أم أتبع الترتيب الزّمني؟ لم أعد أعرف.

نحو الرابعةَ عشرة من عمري، كنت قد اعتدت السير في الشوارع بمفردي في أيام العطلة، في كل مرة كانت تودعنا سيارة المدرسة عند محطة مترو «بورت أورليان». كان والداي غائبين، فوالدي كان مشغولًا بأعماله، بينما كانت والدتي تؤدي مسرحية في مسرح «بيجال». اكتشفت في ذلك العام 1959 حي «بيجال».

ذلك، ليلة السبت، بينما كانت والدتي على خشبة المسرح، وكنت قد عدتُ إلى هناك كثيرًا خلال السنوات العشر القادمة. سأسرد المزيد من التفاصيل عن هذا إذا كانت لديّ الشجاعة.

في البداية، كنت خائفًا من السير بمفردي، لكن كي أُطمئن نفسي، كنت أتبع خط السير نفسه في كل مرة: شارع فونتين، ساحة بلانش، ساحة بيجال، شارع فروشو وشارع فيكتور ماسيه حتى مخبز في زاوية شارع بيجال، وهو مكان غريب، كان مفتوحًا طوال الليل، وكنت منه أشتري فطائر الكرواسون.

في العام نفسه والشتاء نفسه، في أيام السبت عندما لم أكن في المدرسة، في شارع سبونتيني كنت أراقب، أمام العمارة التي تعيش فيها، تلك المرأة التي نسيت اسمها الأول، والتي سأسميها «ابنة ستيوبا». لم أكن أعرفها، لقد علمت عنوانها من «ستيوبا» نفسه، خلال إحدى تلك النزهات التي كان يصطحبني فيها والدي و«ستيوبا»، أيام الآحاد إلى متنزّه غابة بولونيا. كان «ستيوبا» روسيًا، وصديقًا لوالدي، وكثيرًا ما كان يلتقيه، كان طويلَ القامة، شعره بنيّ لامع، يرتدي معطفًا قديمًا بياقة من الفرو. كان يعاني انتكاسات مالية. نحو الساعة السادسة مساءً، رافقناه إلى الفندق الذي كان يعيش به. وقد أخبرني أن ابنته في نفس عمري، وأنه يمكنني الاتصال بها. على ما يبدو، لم يعد يراها؛ لأنها تعيش مع والدتها وزوجها الجديد.

في فترة ما بعد ظهيرة أيام السبت من ذلك الشتاء، قبل الذهاب للقاء والدتي في «بيجال»، في غرفة الملابس الخاصة بها في المسرح، كنت أتمركز أمام المبنى الواقع في شارع «سبونتيني» مترقبًا أن ينفتح باب المدخل المزجج والمصنوع من الحديد الأسود، وتظهر فتاة في سنّي «ابنة ستيوبا». كنت على يقين من أنها ستكون بمفردها، وأنها ستسير باتجاهي، وأنه سيكون من الطبيعي أن أقترب منها، لكنها لم تخرج من المبنى قطّ!

Telegram:@mbooks90

كان «ستيوبا» قد أعطاني رقم هاتفها، رفعت سماعة الهاتف. قلت:

«أود التحدث إلى ابنة ستيوبا».

صمت.

عرّفتُ نفسي بأنني «ابن صديق لستيوبا». كان صوتها واضحًا وودودًا، كما لو كنا نعرف بعضنا بعضًا مُنذ فترةٍ طويلةٍ. قالت:

«اتصلْ بي الأسبوع القادم».

تواعدنا.

الأمرُ معقّدٌ... لا أعيش مَع والدي... سأشرح لك كل شيءٍ...

ولكن في الأسبوع القادم والأسابيع الأخرى من ذلك الشتاء، تتابع رنين الهاتف

CamScanner

دون أي ردّ. مرتين أو ثلاث مرات، يوم السبت، قبل أن أستقل المترو إلى «بيجال»، كنت لا أزال أترقبها أمام العمارة الموجودة في شارع سبونتيني. دون جدوى. كان بإمكاني أن أقرع جرس باب الشقة، لكنني، مثل الهاتف، كنت متأكدًا من أنّه لا أحد سيجيب. وبعد ذلك، بداية من ذلك الربيع، لم يعد هناك أي تنزه قطّ في متنزه «غابة بولونيا» مع «ستيوبا». ولا والدي.

كنت مقتنعًا لفترة طويلة أنه لا يمكن للمرء أن يجري مقابلات حقيقية سوى في الشارع؛ لهذا السبب كنت أنتظر ابنة ستيوبا على الرصيف، أمام البناية التي تقيم بها، دون معرفتها. كانت قد قالت لي عبر الهاتف:

«سأشرح لك كل شيء».

وبعد أيام قليلة، نطق صوت -يزداد بُعدا- هذه الجملة في أحلامي.

نعم، إذا كنتُ أرغب في مقابلتها، فذلك لأنني كنت أتمنى أن تعطيني توضيحات. ربما تساعدني هذه التوضيحات على فهم والدي بشكل أفضل، وهو شخص مجهول يسير بجانبي في صمت، على طول ممرات متنزه «غابة بولونيا». هي، ابنة «ستيوبا»، وأنا، ابن صديق «ستيوبا»، ثمة أشياء مشتركة بيننا بالتأكيد، وكنت على يقين من أنها تعرف أكثر قليلًا مما أعرفه.

في الفترة نفسها، خلف باب مكتبه الموارب، كان والدي يتحدث عبر الهاتف، أصابتني بضع كلماتٍ سمعتها منه بالحيرة:

«عصابة السوق السوداء الروسية».

بعد أربعين عامًا تقريبًا، صادفت قائمة بأسماء روسية، بها أسماء كبار تجار السوق السوداء في باريس أثناء الاحتلال الألماني، شابير شنينكوف، وكوريلو وستاموجلو، وبارون وولف، وميتشيريسكي، وجاباريدزه.

هل كان «ستيوبا» بينهم؟ وكذلك والدي، ولكن بهوية روسية مزوّرة؟ طرحت على نفسي هذه الأسئلة مرة أخيرة قبل أن تضيع دون إجابة في ظلام الزمن.

في قرابة السابعة عشرة من عمري، قابلت امرأة؛ ميراي أوروسوف، والتي كانت تحمل أيضًا اسمًا روسيًا، هو اسم زوجها إيدي أوروسوف، الملقب بـ«القنصل»،

والتي كانت تعيش معه في إسبانيا بالقرب من توريمولينوس، كانت فرنسية، ترجع أصولها لمقاطعة لاند؛ حيث الكثبان الرملية، وأشجار الصنوبر، وشواطئ المحيط الأطلسي المهجورة، ويوم سبتمبري مشمس...

غير أني، كنت قد التقيتها في باريس في شتاء عام 1962. كنت قد غادرت مدرستي الثانوية في «هوت سافوا» ودرجة حرارتي 39 من الحمى، استقليت قطارًا إلى باريس، وانتهى بي الأمر، عند منتصف الليل، إلى شقة أمي، كانت غير موجودة، وعهدت بالمفتاح إلى «ميراي أوروسوف»، التي كانت تعيش هناك لبضعة أسابيع، قبل أن تعود إلى إسبانيا. عندما قرعت الجرس، كانت هي من فتح لي الباب، بدت الشقة مهجورة، لم يغد بها الكثير من الأثاث، باستثناء طاولة عريضة وكرسي حديقة في الصالة، وسرير كبير في منتصف الغرفة التي تطلُ على الرصيف، وفي الغرفة المجاورة؛ حيث كنت أنام في طفولتي، طاولة، وفضلات قماش ومانيكان وفساتين وملابس متنوعة متدلية من علاقات الثياب، نثر الشمعدان ضوءًا خافتًا؛ حيث كانت معظم المصابيح مطفأة.

شهر فبراير غريب مع ذلك النور الخجول في الشقة، وهجمات المنظمة السرية (1) المسلحة O.A.S. بينما كانت «ميراي أوروسوف» عائدة من ممارسة الرياضات الشتوية، عرضت علي صورًا لها ولصديقاتها من شرفة أحد الشاليهات. في إحدى هذه الصور، كانت برفقة ممثل اسمه «جيرار بلين». أخبرتني أنه عمل بالسينما وهو في سنّ الثانية عشرة، دون إذن والديه -كان قد هجر والديه لاحقًا- عندما رأيته في بعض الأفلام، بدا لي أنه كان يسير باستمرار، وهو يضع يديه في جيوبه، ورأسه مدسوس إلى حدّ ما بين كتفيه، كما لو كان يريد حماية نفسه من المطر، قضيت معظم أيامي مع ميراي أوروسوف. في الغالب، لم نكن نتناول وجباتنا في الشقة. لقد انقطع الغاز، وكان ينبغي علينا أن نطهو على موقد كحول، ليس ثمة مصدر للتدفئة، ولكن لا يزال هناك عدد قليل من قطع الخشب في مدفأة غُرفة النوم. ذات صباح، ذهبنا بالقرب من ساحة أوديون لدفع فاتورة الكهرباء منذ شهرين؛ حتى لا نعيش على ضوء الشموع في الأيام القادمة. كنا نخرج كل ليلة تقريبًا، اصطحبتني قرب منتصف الليل، بالقرب من الشقة، إلى ملهى في شارع سان بيير، بينما العرض يكون قد انتهى منذ فترة طويلة، كان لا يزال هناك عدد قليل

من الزبائن في البار بالطابق الأرضي، كان يبدو أنهم جميعًا يعرفون بعضهم بعضًا، وكانوا يتحدثون معًا بأصوات خفيضة. التقينا هناك بصديق لها، يدعى جاك دو بافيير (أو ديبافيير)، وهو أشقر ذو مظهر رياضي، أخبرتني أنه صحفي وأنه يتنقل بين باريس والجزائر.

أفترض أنها عندما كانت تتغيب أحيانًا في الليل، تلتقي بجاك دو بافيير (أو ديبافيير)؛ حيث كان يسكن شقة استوديو في شارع بول دومير. لقد رافقتها إلى هناك بعد ظهر أحد الأيام؛ لأنها كانت قد نسيت ساعة يدها هناك. لم يكن جاك بافيير موجودًا. مرتين أو ثلاث مرات، دعانا إلى أحد مطاعم الشانزليزيه، بشارع واشنطن، ويدعى لا روز ديه سابل. بعد ذلك بوقت طويل، علمت أن الملهى، الكائن في شارع سان بيير و«لا روز ديه سابل» كان يتردّد عليهما في ذلك الوقت أفراد من قوة الشرطة الموازية(2) المرتبطة بالحرب الجزائرية. وتساءلت، بسبب هذه المصادفة، عمًا إذا لم يكن جاك دو بافيير (أو ديبافيير) ينتمي إلى هذه المنظمة.

شتاء آخر، في سبعينيات القرن الماضي، نحو الساعة السادسة مساءً، رأيت رجلًا ظننت أنني أعرفه، وهو يخرج من مدخل محطة مترو جورج الخامس، بينما كنت أدخل إليها، يبدو أكثر تقدمًا في العمر، جاك دو بافيير. استدرت وسرت خلفه، محدثًا نفسي أنه ينبغي علي الاقتراب منه لمعرفة ما حدث لميراي أوروسوف. هل كانت لا تزال تعيش في توريمولينوس مع زوجها إيدي «القنصل»؟ كان يتجه نحو ميدان «رون - بوان» الدائري، وكان يعرج قليلًا. توقفت بالقرب من شرفة مقهى «مارينيون»، وتابعته بنظري حتى ضاع وسط الحشد. لماذا لم أقترب منه؟ وهل كان سيتعرف علي؟ لا أستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة.

باريس، بالنسبة إلي، مليئة بالأشباح، كثيرة العدد مثل محطات المترو، وجميع نقاط الإضاءة الخاصة بها، لو صادف وضغطت على أزرار لوحة المواصلات(3).

غالبًا ما كنا، أنا وميراي أوروسوف، نستقل المترو من محطة اللوفر، إلى المناطق الغربية؛ حيث كانت تزور أصدقاء نسيت وجوههم. ما يبقى دقيقًا في ذاكرتي عبورنا معًا جسر الفنون، ثم الساحة أمام كنيسة سان جيرمان لوكسيروا، وأحيانًا عبور باحة متحف اللوفر؛ حيث، في الخلفية، الضوء الأصفر لدائرة الشرطة، الضوء الخجل نفسه الذي كان يضيء الشقة. في غُرفتي القديمة، كتبٌ على الرفوف،

بالقرب من النافذة الكبيرة على اليمين، وأتساءل اليوم بأية معجزة بقيت هناك، منسية، عندما ذهب كل شيء. الكتب التي كانت تقرؤها والدتي عندما كانت قد وصلت إلى باريس في عام 1942: روايات هانز فالادا(4)، وكتب باللغة الفلمنكية، ثم مجلدات من المكتبة الخضراء(5) التي كانت لي: «لغز سفينة الشحن» Cargo du mystère le، «الفيكونت براجلون» Le Vicomte de Bragelonne. هناك، في هوت سافوا، انتهى بهم الأمر إلى القلق بشأن غيابي.

ذات صباح رنّ جرس الهاتف، وكانت ميراي أوروسوف هي التي ردت على المكالمة. الكاهن جانين، مدير المدرسة، أراد أن يعرف أخباري؛ لأنه لم يكن يعرف عني أي شيء منذ أسبوعين.

أخبرته بأنني «لست على ما يرام» -أنفلونزا شديدة- وأنها ستجعله على علم بالموعد المحدد «لعودتي».

طرحت عليها سؤالًا بصراحة: هل يمكنني الذهاب معها إلى إسبانيا؟ كنت بحاجة إلى إذن كتابي من والديك لعبور الحدود إذا كنت قاصرًا. وكوني لم أبلغ سنّ الرشد بعد، بدا فجأة أمرًا مُقلقًا للغاية لميراي أوروسوف، لدرجة أنّها اقترحت أن تسأل جاك دو بافيير رأيه.

كان وقتي المفضل في النهار في باريس في الشتاء، بين السادسة والثامنة والنصف صباحًا. عندما كان الظلام لا يزال. استراحة قبل شروق الشمس. كان الطقس رائعًا، ويشعر المرء معه بأنه أخفّ من المعتاد. كنت أتردد على العديد من مقاهي باريس، بينما كانت تفتح أبوابها لزبائنها الأوائل. في شتاء عام 1964، في أحد مقاهي الفجر -كما أسميتها- حيث كانت كل الآمال ممكنة، بينما كان لا يزال هناك الظلام، قابلت جينفيف دالام.

كان المقهى يحتل الطابق الأرضي لأحد هذه المنازل المنخفضة، بالقرب من نهاية شارع «بوليفار دو لا جار»، في الدائرة الثالثة عشرة. اليوم، غير الشارع اسمه، وذهبت المنازل والمباني الصغيرة الموجودة في جانب الأرقام الفردية، قبل ميدان إيطاليا. من وقت لآخر كان يبدو لي أن المقهى يسمى «البار الأخضر»، وفي أوقات أخرى تتلاشى تلك الذكرى، وكأن الكلمات التي سمعتها للتو في حلم، وتهرب منك

حالما تستيقظ.

كانت جينفيف دالام أوّل من يصل دائمًا. وعندما دخلتُ المقهى، رأيتها جالسة إلى نفس الطاولة، تلك الموجودة في الخلف، ورأسها مائل على كتاب مفتوح. أخبرتني أنها بالكاد تنام أربع ساعات ليلًا. كانت تعمل سكرتيرة في «استوديوهات بوليدور»(6) Polydor Studios، التي تبعد قليلًا عن الشارع؛ ولهذا كنا نلتقي في هذا المقهى، قبل أن تذهب إلى مكتبها. لقد قابلتها في مكتبة خاصة بعلوم السحر والتنجيم في شارع جيفروي سانت- هيلير. كانت مهتمةً جدًا بهذه العلوم. وأنا أيضًا. ولم يكن الأمر امتثالًا مني لأية عقيدة أو أن أصبح تلميذًا لشيخ روحي، ولكن ببساطة بدافع الفموض.

عند مغادرة المكتبة، كان النهار قد انقضى. وفي ذلك الوقت، في الشتاء، كان الشعور بالخفة هو نفس الشعور بخفة الصباح الباكر عندما كان لا يزال الظلام. من الآن فصاعدًا، ستظل الدائرة الخامسة، في جميع مناطقها المختلفة وضاحيتها البعيدة، بوليفار دو لا جار، مرتبطة بالنسبة إليّ بجينفيف دالام.

قبل خمسة وعشرين عامًا، كان إميل ستيرن، كان قد أجرى أولى تسجيلات إديث بياف في استوديوهات. سألت «جنيفيف دالام» عمّا إذا كانت أرشيفات استوديوهات بوليدور تحافظ على هذه التسجيلات. في صباح أحد الأيام في المقهى، سلّمتني مظروفًا يحتوي على نماذج تسجيلات إديث بياف القديمة، التي أجراها إميل ستيرن(7)، بدت مستاءة للغاية؛ لأنها سرقت هذا من أجلي.

في البداية كانت مترددة في إخباري أين تعيش بالضبط. عندما طرحت عليها السؤال، قالت:

«في الفندق. لقد عرفنا بعضنا بعضًا منذ أسبوعين، وفي إحدى الأمسيات؛ حيث قدّمت لها قاموس ماريان فيرنويل العملي لعلوم السحر والتنجيم ورواية كانت تدور حول التعاليم الباطنية. «في ذكرى ملاك»، عرضت عليّ مرافقتها إلى هذا الفندق.

كان يقع في الجزء السفلي من شارع مونج، على حافة محطة مترو جوبلان في الدائرة الثالثة عشرة. لقد مرّ حوالي نصف قرن، ولم نعد نقيم في غرف فندقية

في باريس، كما كنا نفعل غالبًا بعد الحرب، وحتى الستينيات. كانت جنيفيف دالام آخر شخص عرفته يعيش في غرفة فندقية. يبدو لي أيضًا أنه خلال هذه السنوات 1963 و1964، حبس العالم القديم أنفاسه للمرة الأخيرة قبل الانهيار، مثل كل هذه المنازل، وكل هذه المباني في الضواحي والأطراف التي كانت على وشك التدمير. نحن الذين كنا صغارًا سنمنح الفرصة للعيش لبضعة أشهر أخرى في الديكورات القديمة. في فندق بشارع مونج، أتذكّر أن قابس الكهرباء كان على شكل كمثرى، فوق الكومودينو والستارة السوداء التي كانت تسحبها «جنيفيف دالام» في كل مرة بإيماءة مفاجئة، هي ستارة دفاع سلبي لم تتغير منذ الحرب.

لقد قدّمتني إلى أخيها بعد أسابيع قليلة من تعرفنا على بعضنا بعضًا. وهو أخ لم تكن قد حدثتني عنه حتى ذلك الحين. وقد حاولت في مرتين أو ثلاثة أن أعرف المزيد عن عائلتها، لكنني أحسست بها تحجم عن الرد، فلم أصر.

في صباح أحد الأيام، دخلتُ مقهى شارع دو لا جار، وكانت تجلس إلى الطاولة المعتادة مع رجل أسود الشعر في مثل سننا، كان يجلس في مواجهتها. جلست على المقعد المجاور لها، كان يرتدي سترة بسوستة ذات أكتاف مبطّنة تبدو وكأنها مصنوعة من فراء النمر، ابتسم لي وأمر بمشروب روحي بصوت حاد، كما لو كان زبونًا معتادًا هناك.

في الثامنة والنصف تقريبًا، كنا نسير نحو مكتبها بمحاذاة جزيرة وسط الطريق؛ حيث يمر القطار الهوائي، طرحت عليها مجموعة أسئلة عن استوديوهات بوليدور. كنت قد اجتزتُ مؤخرًا اختبارًا بصفتي «كاتبًا غنائيًا» في جمعية المؤلفين والملحنين والناشرين الموسيقيين، وكنت بحاجة إلى «راعٍ» للانضمام إليها. وافق إميل ستيرن مؤلف الأغاني، وقائد الأوركسترا وعازف البيانو تولي هذا الدور.

قالت لي جنيفيف دالام:

«إنه أخي».

وفهمت من هيئتها المنزعجة أنه جاء لمقابلتها بشكل غير متوقّع.

سألني «عن مهنتي»، فأجبته مراوغًا. ثم، وكأن هذه المعلومة قد تكون مفيدة له،

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

سألني سؤالًا فاجأني:

«هل تعيش في باريس؟».

اعتقدت أنه لم يعِش على الإطلاق في باريس، كانت قد أخبرتني جنيفيف دالام أنها وُلدت في بلدة في منطقة الفوج، والتي لم أعد أتذكر إذا كانت إبينال أو سان ديبيه. تخيّلته، قرابة الساعة الحادية عشرة مساءً، على طاولة مقهى في إحدى هاتين المدينتين، مقهى قريب من المحطة، وهو الوحيد الذي لا يزال مفتوحًا. من المحتمل أنه كان يرتدي نفس السترة، الواسعة جدًا، المصنوعة من جلد النمر المقلد، وهذه السترة التافهة تمامًا في أحد شوارع باريس، لا بُدّ أنها جذبت الانتباه إليه هناك. كان يجلس بمفرده، وينظر بغموض، أمام كأس من البيرة، بينما كانت تُلعب آخر مباراة بلياردو.

أراد أن يرافق جنيفيف دالام إلى مكتبها، وسِرنا على طول منتصف الشارع، بدت غير مرتاحة أكثر فأكثر في حضوره، كما لو أنها تريد التخلص منه، وتأكد انطباعي عندما سألها إذا كانت لا تزال تعيش في الفندق الواقع في شارع مونج. قالت له:

«سأتركه الأسبوع المقبل، لقد وجدت فندقًا آخر بالقرب من حي أوتوي».

وأصرّ على الحصول على العنوان، أعطته رقمًا، شارع ميشيل أنج، كما لو كانت تتوقع أنه سيطرح عليها هذا السؤال، أخرج مفكرة مغلفة بالجلد الأسود من جيب السترة الداخلي وكتب العنوان، ثم تركتنا أمام باب استوديوهات بوليدور وهي تقول لي:

- «أراك لاحقًا».

مع حركة خفيفة بالرأس، كعلامة على الموافقة.

لذلك وجدت نفسي وحدي مع هذا الشخص الذي يرتدي سترة النمر.

- «هل تريد أن نتناول كأسًا؟».

قال لي بنبرة حازمة.

بدأ الثلج يتساقط على شكل ندفات رطبة جدًا، تكاد تكون قطرات مطر. قلت له:

- «ليس لديّ وقتٌ. لا بُدّ لي من الذهاب؛ فلديّ موعد».

لكنه كان يسير بجانبي دائمًا، وأردت أن أفلت منه بالركض إلى مدخل محطة مترو شوفاليريه، الواقعة على بعد بضع مئات من الأمتار.

- «هل تعرف جنيفيف منذ فترة طويلة؟ ألا تزعجك كثيرًا بقصصها عن السحر والأقراص الذوّارة؟».

- «أبدًا».

سألني إذا كنت أقيم في الحي، وكنت متأكدًا أنه يبحث عن عنواني ليكتبه في مفكرته السوداء. قلت له:

- «خارج باريس».

وكنت أشعر بالخجل بعض الشيء من هذه الكذبة. «في سان كلو»، أخرج مفكّرته السوداء. كان عليّ أن أخترع عنوانًا، طريق أناتول - فرانس أو رومان - رولان.

- «وهل لديك هاتف؟».

ترددتُ للحظة فيما يتعلق بالكود، واخترت مفتاح «فال دور Val-d'Or» متبوعًا بأربعة أرقام. وقد دوّن ذلك بدقة.

- «أريد التسجيل في مدرسة لفن الدراما. هل تعرف إحداها؟».

رمقني بنظرة فاحصة.

- «قيل لي إن هيئتي مناسبة لذلك».

كان طويل القامة، وملامح وجهه متناسقة إلى حدٍّ ما، وشعره أسود مجعّد. أجبته:

- «كما تعلم، توجد بكثرة في باريس».

بدا متفاجئًا، ربما بسبب عبارة: «بكثرة». سحب سوستة سترته، المصنوعة من جلد النمر المقلد، حتى ذقنه، ورفع الياقة لحماية نفسه من الثلج الذي كان يتساقط بقوة. لقد وصلت أخيرًا إلى مدخل المترو، كنت أخشى أن يتبعني، ولم يغد

بإمكاني التخلص منه، نزلت الدرج دون أن أقول وداعًا أو أستدير، ثم انزلقت إلى رصيف المحطة بمجرد إغلاق البوابة.

لم تندهش جنيفيف دالام بالطريقة التي كنت قد تعاملت بها مع أخيه. على أية حال، ألم تعطه هي نفسها عنوان فندق مزيفًا؟ وأوضحت لي أنه جاء إلى المقهى ليطلب منها المال. بالطبع كان يعرف هذا المقهى الذي نرتاده في الصباح الباكر جدًا ومكان عملها، لكنها أخبرتني أنه من السهل التخلص من الناس، ولم أشاركها التفاؤل، وأضافت بصوت هادئ للغاية أن شقيقها سيعود في نهاية المطاف إلى إقليم الفوج، ويعيش فيه ألاعيب صغيرة -هذا هو التعبير الذي استخدمته- كما كان يفعل دائمًا. ومرّت الأيام دون أن يصلنا أي خبر عنه.

نعم، ربما عاد إلى الفوج. لبعض الوقت، تخيّلت شقيق جنيفيف دالام يدخل كابينة الهاتف ويطلب مفتاح فال دور ثم أربعة أرقام دون أن يجيب أحد. وإلا فإنه سمع عبارة: «لقد أخطأت يا سيدي»، التي تسقط كشفرة مقصلة. لقد رأيته أيضًا يستقل المترو، ثم يعبر نهر السين إلى سان كلو، مرتديًا سترته المصنوعة من جلد النمر المقلد. كان الشتاء قاسيًا جدًا في ذلك العام، فسار بياقة مرفوعة يبحث عن طريق لم يكن موجودًا. وهذا إلى الأبد.

كانت جنيفيف دالام تزور بانتظام امرأةً اعتبرتها صديقة وكانت، وفقًا لها، على دراية كبيرة بعلوم السحر والتنجيم، أخبرتها عن لقائنا، وأنني أهديتها قاموس ماريان فرنوي، ورواية تحمل عنوان «في ذكرى ملاك». في أحد الأيام، طلبت مني أن أرافقها إلى مادلين بيرو هذه التي كنت أجد صعوبة في تذكّر اسمها. لكنها، مع قليل من الإرادة القوية، تعود إلى ذاكرتك، تلك الأسماء التي بقيت في ذهنك تحت طبقة خفيفة من الثلج والنسيان. نعم، مادلين بيرو. ولكن ربما أكون مخطئًا بشأن الاسم.

كانت تقيم في بداية شارع فال دو جراس، رقم 9. ومنذ ذلك الحين، مررت كثيرًا أمام البوابة التي تتيح الوصول إلى حديقة محاطة بثلاث واجهات مبانٍ ذات نوافذ كبيرة. حتى إنني وجدت نفسي هناك، بالمصادفة، بعد أسبوعين. وكان ذلك في الوقت الذي كنا فيه أنا وجنيفيف دالام نعبر البوابة. في الخامسة مساءً في الشتاء، عندما كان الليل يهبط وكنا نرى الضوء بالفعل في النوافذ، كنت على يقين

بأنني عدت إلى الماضي من خلال ظاهرة يمكن تسميتها بالعود الأبدي، أو ببساطة، أن الزمن بالنسبة إليّ كان قد توقف عند فترة معيّنة من حياتي.

كانت مادلين بيرو امرأة سمراء تبلغ من العمر قرابة أربعين عامًا، وكان شعرها على شكل كعكة، وعيناها فاتحتين، ووضعية رأسها ومشيتها تشبه راقصة سابقة. كيف تعرفت عليها جنيفيف دالام؟ أعتقد أنها ذهبت أولًا إلى منزلها لتلقي دروس اليوجا، لكني أتذكر أيضًا أنه قبل أن تقدّمها لي، تحدّثت جنيفيف دالام عنها باسم «دكتور بيرو». هل مارست الطب؟ يعود كل هذا إلى قرابة خمسين عامًا، ويجب أن أقول إنني خلال نصف القرن هذا لم أطرح على نفسي الكثير من الأسئلة حول كل هؤلاء الأشخاص الذين التقيت بهم. لقاءات مختصرة.

منذ اليوم الذي قدمتها إليّ، رافقتها عدة مرات إلى منزل مادلين بيرو في الساعة الخامسة مساءً، وفي أيام الخميس. قادتنا في صمت على طول الردهة المؤدية إلى غرفة الاستقبال. كانت النافذتان الكبيرتان تطلّان على الحديقة، فجلسنا، أنا وجنيفيف دالام، على الأريكة الحمراء، قبالة النوافذ، ومادلين بيرو، على وسادة محشوّة، الساقان متقاطعتان، والظهر مستقيم للغاية. عندما التقينا لأول مرة، سألتني بصوتها المنخفض، المبحوح تقريبًا، إذا كنت أدرس، فقلت لها الحقيقة:

- «لا، لا أدرس».

كنت قد التحقت بجامعة السوربون فقط لتمديد فترة تأجيل التحاقي بالعسكرية، لكنني لم أحضر الفصول الدراسية مطلقًا. لقد كنت طالبًا شبحًا. أرادت أن تعرف إذا كان لديّ عمل، وأخبرتها أنني أكسب رزقي تقريبًا من خلال العمل لدى بعض بائعي الكتب، وهو ما يمكن أن نسميه، على الرغم من أنني لا أحب هذا المصطلح التجاري كثيرًا: «سمسرة الكتب». وكنت عضوًا في جمعية المؤلفين والملحنين وناشري الموسيقى بغرض كتابة كلمات الأغاني. هأنذا.

- «ووالداك؟».

أدركت فجأة أنه في مثل سنّي هذا كان من الممكن أن يكون لديّ والدان يقدّمان لي المساعدة المعنوية أو العاطفية أو المادية. لكن...

- لا، لا يوجد والدان.

وكان هذا الرّدّ مقتضبًا جدًا، لدرجة أنها لم ترغب في معرفة المزيد عن دائرة عائلية محتملة. كانت هذه هي المرة الأولى التي أجيب فيها بشكل عفوي على الأسئلة المتعلقة بي. حتى ذلك الحين، كنت أتجنّب ذلك؛ لأنني شعرت بعدم ثقة طبيعية في جميع أشكال الاستجواب. ربما سمحت لنفسي بالانطلاق ذلك المساء؛ بسبب نظرة مادلين بيرو وصوتها، اللذين كانا ينقلان إليك نوعًا من الهدوء، والشعور بأن هناك مَنْ يستمع إليك، وهو أمر لم أكن معتادًا عليه. لقد طرحت أسئلة جيدة، كما أخصائي الوخز بالإبر الذي يعرف الأماكن الدقيقة التي يجب إدخال الإبر فيها. وبالإضافة إلى ذلك، ألم تنادِها جنيفيف دالام بـ«دكتور بيرو» عدة مرات؟ ومن ناحية أخرى، كان هناك أيضًا هدوء غُرفة الاستقبال هذه، والنافذتان الكبيرتان المطلتان على الحديقة، وإضاءة مصباح الشارع بين النوافذ؛ ممّا ترك مناطق ضوء خافت. بسبب الصمت، تتساءل عمّا إذا كنت حقًا في باريس. قضيت معظم أيامي في الخارج، في الشوارع والأماكن العامة والمقاهي ومترو الأنفاق وغُرف الفنادق ودور السينما. وكانت شقة «دكتور بيرو» تتناقض مع كل هذا، خاصة في فصل الشتاء، فصول الشتاء في أوائل الستينيات، والتي تبدو لي أنها كانت أقسى بكثير من فصول الشتاء اليوم.

أعترف أنني في زيارتي الأولى لـ«دكتور بيرو» قلت لنفسي إنه سيكون من المطمئن أن أحتمي في شقتها من البرد والشتاء، وأن أجيب على الأسئلة التي ستطرحها عليّ بصوت عميق وهادئ جدًا.

في منزل مادلين بيرو، سمحت لنفسي بإلقاء نظرة على الكتب التي كانت تشغل رفوف مكتبة منخفضة، في الجزء الخلفي من غُرفة الاستقبال. أخبرته أنني لا أريد أن أكون متطفلًا، ولكن من جهتي كان هذا فضولًا «مهنيًا».

- «إذا وجدت الكتب التي تهمّك، فالتقِطها».

لقد شجّعتني بابتسامة. كانت هذه أعمالًا متخصصة في علوم السحر والتنجيم. ومن بينها الرواية التي كنت قد أهديتها إلى جنيفيف دالام، والتي كانت تعود إلى قرابة عشر سنوات: «في ذكرى ملاك». قالت لي مادلين بيرو:

- «لقد فوجئت بمعرفتك هذه الرواية».

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

وكأن هذا الكتاب يذكّرها بشيء محدّد، أكثر من مجرد قراءة، بشيء مرتبط بحياتها.

أخرجتها من المكتبة وفتحتها على نحو آلي. وفي صفحة الغلاف إهداء:

«لأجلك. في ذكرى الملائكة. ميجيف. الخطوة الغبية. إيرين».

بخط كبير بالحبر الأزرق. لاحظت أنني قرأت الإهداء وبدت منزعجة. قالت لي:

- «رواية جميلة، ولكن لديّ كتب أخرى. أدعوكما لقراءتها».

وقالت هذه الجملة الأخيرة بنبرة سلطوية. في إحدى الأمسيات، وضعت كتابًا على الأريكة الحمراء بيني وبين جنيفيف دالام، عنوانه لقاءات مع رجال بارزين. هذا العنوان وهذه الكلمة «لقاءات» اليوم، بعد أكثر من خمسين عامًا، يجعلانني فجأة أفكر في تفصيلة لم تخطر على بالي حتى ذلك الحين. لم أسعَ قطّ، مثل الكثير من الأشخاص في عمري، إلى مقابلة العقول الأربعة أو الخمسة التي كانت تحكم منصات الجامعة في ذلك الوقت، وأن أصبح تلميذًا لأحدهم. لماذا؟ بوصفي طالبًا شبحًا، كان من الطبيعي بالنسبة إليّ أن ألجأ إلى مرشد؛ لأنني كنت أعاني شعورًا بالوحدة والارتباك. وهو الوحيد الذي أتذكره من هؤلاء الأساتذة؛ لأنني التقيت به ذات ليلة، في وقت متأخر جدًا، في شارع دو كوليزيه. كنت أتخيّل مقابلته في منطقة المدارس. أذهلتني مشيته المترنّحة والحزن والقلق في عينيه. لقد أعطاني الانطباع بأنه ضائع. أمسكت بذراعه وأرشدته، كما طلب، إلى أقرب موقف سيارة أجرة.

سرعان ما خفّتْ أن «دكتور بيرو» كان لها تأثير على جنيفيف دالام. في إحدى الأمسيات، بينما كنا نغادر منزلها، بعد عبور الحديقة، أخبرتني أن مادلين بيرو كانت تتردد على «مجموعة» ما يشبه المجتمع السري، حيث يمارس «السحر». لم تستطع إخباري بالمزيد عن ذلك؛ لأنها لم تعرف شيئًا ذا بال عنها. كانت مادلين بيرو تلمح إلى هذه المجموعة، ولكن دائمًا بطريقة غامضة، دون شك لتراقب أفعالها، جنيفيف دالام، قبل الوصول إلى جوهر الموضوع. لكن بدا لي أن جنيفيف دالام تعرف أكثر مما أرادت أن تخبرني به، خاصة عندما خطرت لها هذه الفكرة فجأة:

« يمكنك التحدث معها حول هذا الموضوع».

مشينا على طول الجدار المحيط، أمام كنيسة سان جاك دو هو- با.

«نعم، يجب عليك التحدث معها حول هذا الموضوع».

لقد فوجئت بإصرارها. لقد سألتها:

- هل تعرفينها منذ فترة طويلة؟

- لا، لم يمضِ وقت طويل. التقيت بها بعد ظهر أحد الأيام، في مقهى قريب جدًا من منزلها، قبالة فال دو جراس.

كانت على وشك إخباري بالمزيد من التفاصيل، لكنها ظلت صامتة. لقد خرجنا إلى هذا الشارع الواسع للغاية الذي يحدُّ المباني الحديثة لمدرسة المعلمين العُليا ومدرسة الفيزياء والكيمياء، والذي يعطيك الانطباع بأنك تائه في مدينة أجنبية -برلين، أو لوزان، أو حتى روما، في حي باريولي- لدرجة أنك تتساءل عمّا إذا كنت تمشي في حلم، وينتهي بك الأمر بالشك في هويتك.

«ينبغي أن تتحدث إليها بالفعل».

كرّرت جنيفيف دالام بصوت قلق، كما لو كانت تناديني طلبًا للمساعدة.

«سوف تخبرك».

كنت على وشك أن أسألها:

«تخبرني ماذا؟».

ولكن انتابني شعور بأن مثل هذا السؤال العفوي سيزيد من مضايقتها، وأنها كانت بالفعل تحت تأثير «دكتور بيرو».

«ولكن بالطبع سأتحدث معها».

وحاولت أن أبقي لهجتي هادئة ولا مبالية.

«ابتداءً من الخميس المقبل، عندما تذهب لرؤيتها. إنها تثير اهتمامي إلى حدٍّ كبير، هذه المرأة. تبدو ذكية جدًا. لديّ فضول لمعرفة المزيد عنها».

وصلنا إلى مدخل الفندق الذي تقيم فيه. كان يبدو عليها الارتياح. ابتسمت لي.

أعتقد أنها كانت ممتلئة؛ لأنني أخبرتها أنني متشوق لمعرفة المزيد. لقد قصدت ذلك حقًا عندما قلت هذه الكلمات.

منذ طفولتي ومراهقتي، شعرت بفضول شديد وانجذاب خاص لكل ما يتعلق بأسرار باريس.

****

لكني لم أنتظر حتى الخميس التالي لمعرفة المزيد. في صباح أحد الأيام، عندما رافقت جنيفيف دالام من فندقها إلى استوديوهات بوليدور، استقللت المترو في الاتجاه المعاكس، وعند مخرج محطة سينسيه - داوبنتون، مشيت إلى فال دو جراس. وصلت إلى البوابة، ودون تردُّد عبرتُ الحديقة. عندما دخلت من باب المبنى، اعتقدت أنه كان ينبغي عليّ الاتصال بمادلين بيرو وسؤالها عمّا إذا كان بإمكانها استقبالي.

لقد فوجئت برنين جرس الباب، الذي لم ألحظه عندما كنت مع جنيفيف دالام على بسطة الدرج هذه: نغمات رقيقة مكتومة، كانت تهدِّد بإيقافها باستمرار، لدرجة أنني أبقيت إصبعي مضغوطًا على الزر، صوت رنين لم أكن متأكدًا من أن مادلين بيرو ستتمكّن من سماعه إذا كانت في الغُرفة الداخلية.

انفتح الباب مواربًا دون أن أسمع أدنى صوت لوقع خطوات. هل كانت واقفة خلف الباب تنتظر زائرًا محتملًا؟ لم يبدُ عليها المفاجأة لرؤيتي. كما كانت تفعل دائمًا، قادتني في صمت عبر الردهة. كانت هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها غُرفة الاستقبال في وضح النهار. كانت هناك بقع شمسية على الباركيه. ومن خلال النافذة تمكّنتُ من رؤية الحديقة تحت طبقة خفيفة من الثلج. لقد شعرت بأنني بعيد عن باريس أكثر من الأمسيات التي أتيت فيها إلى هنا مع جنيفيف دالام.

جلست إلى يساري على الأريكة الحمراء، حيث كانت جنيفيف دالام تجلس عادة. حدّقت فيّ.

«اتصلت بي جينفيف للتو لتخبرني أنك تريد رؤيتي. كنت أنتظرك».

لذا فقد تقرّرت هذه الزيارة دون علمي. ربما وضعتاني كلتاهما، دون أن أدرك

ذلك، في حالة من التنويم المغناطيسي.

«هل اتصلت بك؟».

بدا لي أنني قد شهدت بالفعل هذا المشهد في حلم. أضاء شعاع من ضوء الشمس الجدار الخلفي للمكتبة. وكانت هناك لحظة صمت بيننا. كان الأمر متروكًا لي لكسرها.

«لقد قرأت الكتاب الذي أعرتني إيّاه... لقاءات مع رجال بارزين... كنت قد سمعت عنه بالفعل...».

كان ذلك خلال السنتين اللتين قضيتهما في إحدى الكليات في هوت - سافوا. أخبرني أحد زملائي، بيير أندريو، أن والديه كانا من تلاميذ مؤلف هذا الكتاب، جورج إيفانوفيتش جوردجييف «معلم روحي». اصطحبتنا والدته أنا وبيير أندريو بالسيارة في يوم إجازة إلى هضبة آسي لزيارة صديقة لها، صيدلانية، مريدة أخرى لجوردجييف. لقد سمعت مقتطفات من محادثتهم. كان الأمر يتعلّق بـ«المجموعات» التي أنشأها هذا الرجل حوله لنشر» تعاليمه «بشكل أفضل. وقد أثار اهتمامي مصطلح «مجموعات».

«آه... نعم، هل سمعت عنها؟ تحت أي ظرف من الظروف؟».

كان تعبيرها يبدو قَلِقًا ومهتمًا في الوقت نفسه، وكأنها تخشى أن أطلع على بعض الأسرار.

«لقد مكثت في هوت - سافوا فترة طويلة. كان يوجد فيها بعض تلاميذ جورج إيفانوفيتش جوردجييف...».

قلت هذه الجملة ببطء وأنا أحدق بها:

«في هوت - سافوا؟».

على ما يبدو، لم تتوقع مني أن أخبرها بهذه التفاصيل. كنت أشبه شرطيًا يحاول، من خلال تأثير المفاجأة، انتزاع اعتراف. لكنني لم أكن شرطيًا. مجرد شاب جيد.

«نعم... في هوت - سافوا... بالقرب من هضبة آسي... ليس بعيدًا جدًا عن ميجيف...».

تذكرت الإهداء الذي كان موجودًا على رواية «في ذكرى ملاك»، وهو بلا شك كان موجّهًا إليها: «من أجلك... ميجيف... الخطوة الغبية...».

«وهل تعرفت على تلاميذ لجوردجييف... في هوت- سافوا؟».

«نعم، البعض منهم...».

كان لديّ انطباع بأنها كانت تنتظر ببعض العصبية أن أذكر لها أسماء.

«والدة زميل مدرسة... أخذتنا لرؤية صديقة كانت هي أيضًا من تلاميذ جوردجييف... صيدلانية... في هضبة آسي...».

كنت أقرأ الدهشة في عينيها.

«لكنني كنت أعرفها منذ زمن طويل... هذه الصيدلانية من هضبة آسي... وكان اسمها أيضًا جينيفيف، جينيفيف ليف...».

قلت لها:

« لم أكن أعرف اسمها».

أمالت رأسها كما لو كانت تحاول أن تتذكر هذه المرأة بشكل أكثر دقّةً. وربما تفاصيل أخرى عن فترة من حياتها.

«ذهبت لرؤيتها عدة مرات في هضبة آسي...».

كانت قد نسيت وجودي. لقد صمتُ؛ لأنني لم أرغب في تشتيت أفكارها. وبعد لحظة، التفتت نحوي.

«لم أكن أتخيل أنك ستذكّرني بكل هذه الأشياء».

بدت مرتبكة للغاية، لدرجة أنني تساءلت عمّا إذا كان ينبغي لنا تغيير موضوع المحادثة.

«أخبرتني جنيفيف أنك تعطينها دروسًا في اليوجا. أحب أن أتلقّى دروس اليوجا

معك».

لم تكن قد سمعتني. أمالت رأسها من جديد، وهي بلا شك تحاول جمع ما تبقى لها من ذكريات عن هذه الصيدلانية من هضبة آسي.

اقتربت مني. كان وجهانا يتلامسان تقريبا. قالت لي بصوت منخفض:

«كنت صغيرة جدًا..لا بُدّ أنني كنت في عمرك... كان لديّ صديقة تدعى إيرين... كانت هي التي اصطحبتني إلى الاجتماعات مع جوردييف...في باريس، شارع كولونيل رونار... وكان من حوله مجموعة كاملة من التلاميذ...».

كانت تتحدث بسرعة وبطريقة متشنجة، كما لو كانت تتوجه إلى أحد كهنة الاعتراف. وهذا أحرجني بعض الشيء. لم أكن كبير الشن، ولا من ذوي الخبرة للعب دور كاهن الاعتراف.

«ثم غادرت مع صديقتي إيرين هوت- سافوا... إلى ميجيف وإلى هضبة آسي... كان لا بُدّ من علاجها في مصحة بهضبة آسي...».

كانت على استعداد أن تحكي لي قصة حياتها. لقد فعل العديد من الأشخاص من جميع الأنواع هذا الأمر في السنوات التالية، وكثيرًا ما تساءلت عن السبب. لا بُدّ أنني كنت أوحي لهم بالثقة. أحببت الاستماع إلى الناس وطرح الأسئلة عليهم. كثيرًا ما كنت ألتقط مقتطفات من محادثات الغرباء في المقاهي. لقد كتبتها بصورة غير مُلفتة قدر الإمكان. على الأقل تلك الكلمات لم تضع إلى الأبد. إنها تملأ خمسة دفاتر ملاحظات بالتواريخ والحذف:

- إيرين، هل هي التي أهدتك كتاب» في ذكرى ملاك»؟ لقد سألتها.

- بالضبط.

- وفي نهاية الإهداء مكتوب: «الخطوة الغبية». أنا أعرف الخطوة الغبية جيدًا.

قطّبت حاجبيها وأعطتني انطباعًا بأنها تبذل جهدًا للتذكر.

- لقد كان ملهى ليليًا، ذهبت إليه مع إيرين.

لم أنس هذا المبنى المدفّر الواقع على الطريق المؤدي إلى جبل مون داربوا،

والذي كان يظهر على جزء منه آثار حريق. وفي الأمام منه، عُلِّقت لوحة خشبية فاتحة اللون كان قد كُتب عليها بأحرف حمراء «الخطوة الغبية».

كنت قد قضيت عدة أشهر في دار للأطفال، على بُعد بضع مئات من الأمتار، أعلى قليلًا. قالت لي بصوت جافٍّ، كما لو كانت تريد مقاطعة حوارنا:

- لم أعُد إلى هوت- سافوا منذ ذلك الحين.

- بعد تعرُّفكِ على جوردييف، هل كنتِ جزءًا من«المجموعات»؟

بدت متفاجئةً من سؤالي.

- أسألك هذا؛ لأن والدة صديقي والصيدلانية في هضبة آسي تستخدمان هذه الكلمة كثيرًا.

أجابتني:

- لقد كانت كلمة يستخدمها جوردييف: «مجموعات العمل»، «العمل على الذات».

لكنني أعتقد أنها لم تكن تريد أن تعطيني تفسيرات أكثر دقّةً فيما يتعلق بمذهب جورج إيفانوفيتش جوردييف.

«صديقتك جنيفيف...» قالت لي فجأة. «إنه لأمر جنوني مدى شبهها بإيرين... عندما رأيتها للمرة الأولى في هذا المقهى، قبالة فال دو جراس، شعرت بالصدمة... اعتقدت أنها إيرين...».

لم أكن منزعجًا على الإطلاق ممّا قالته لي للتو. منذ طفولتي، كنت أسمع الكثير من التعليقات الغريبة خلف الأبواب الموارِبة، وجدران غُرف الفنادق الرقيقة جدًا، والمقاهي، وغُرف الانتظار، قطارات الليل...

- أنا قلِقة للغاية بشأن جنيفيف... هذا ما أردت أن أتحدث معك عنه...

- قلِقة للغاية، بشأن ماذا؟

- لديها طريقة غريبة في العيش... وكأنها تغيب عن حياتها من وقت لآخر... ألا تعتقد ذلك؟

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

- لا...

- من الغريب أنك لا تدرك ذلك... أحيانًا يكون لدينا انطباع بأنها تسير على طرف حياتها... هل لاحظت ذلك من قبل؟ هل ذكّرتك يومًا بالسائر أثناء النوم؟

ذكّرتني هذه الكلمة بعنوان باليه شاهدته عندما كنت طفلًا وترك في ذكريات جميلة. كنت أحاول العثور على التشابه الذي يمكن أن يوجد بين جينفيف دالام وهذه الراقصة التي كانت تصعد السلم ببطء بذراعين ممدودتين.

قلت لها: «السائرة أثناء النوم... ربما أنت على حق».

لم أكن أريد أن أضايقها.

- كانت إيرين مثلها تمامًا... تمامًا... كانت تمرُّ بها لحظات من الغياب... حاولتُ مقاومة ذلك...

- وماذا كان رأي جوردجييف؟

لقد ندمت على الفور؛ لأنني طرحت هذا السؤال. قد يحدث في مثل تلك الفترة أن أطرح أسئلة غير مناسبة كهذه. أردت إنهاء الأمر. من خلال الاستماع إلى الناس وإيلاء أكبر قدر ممكن من الاهتمام لهم، كان ينتابني أحيانًا شعور مفاجئ بالضجر والرغبة المفاجئة في قطع العلاقات.

- كان لجوردجييف تأثير جيد عليها. وعليّ أيضًا. لقد شجّعت إيرين دائمًا على متابعة تعاليمه.

التفتت لي وحدّقت فيّ لفترة طويلة. لقد أخافتني.

- علينا أن نساعد جينفيف.

كانت لهجتها جادّةً للغاية، لدرجة أنها أقنعتني في النهاية بأن جينفيف دالام يحدق بها خطر وشيك.

ومع ذلك، بقدر ما فكّرتُ في الأمر، لم أكن أرى مدى الخطر الذي قد يُحدِق بها.

- عليك أن تقنعها بالمجيء والعيش هنا.

لقد فوجئت بأنها كلفتني بمثل هذه المهمة.

- إنه لأمر سيئ للغاية بالنسبة إلى جينفيف أن تعيش في فندق. كانت إيرين مثلها تمامًا... أعرف المشكلة جيدًا... ومع ذلك استغرق الأمر مني ثلاثة أشهر لإقناعها بمغادرة ذلك الفندق الرهيب في شارع أرماييه. ولحسن الحظ فإن اللقاءات في منزل جورديف كانت تجرى في نفس الحي... وإلا لما تركت إيرين غُرفتها طوال اليوم...

من الواضح أن إيرين كانت تعني الكثير في حياتها.

- هل كان الفندق الذي تعيش فيه قريبًا جدًا من منزل جوردجييف؟ (لقد سألتها).

- قرابة خمسين مترًا... لقد اختارت إيرين غُرفة في هذا الفندق لتكون أقرب ما يمكن إلى منزل جوردجييف.

لهذا يكفي أن تقابل شخصًا ما أو تلتقيه مرتين أو ثلاث مرات، أو تسمعه يتحدث في مقهى أو ممر قطار، لتلتقط مقتطفات من ماضيه. تمتلئ دفاتري بأجزاء من الجمل التي نطقتها أصوات مجهولة. واليوم، على صفحة مشابهة للصفحات الأخرى، أحاول نسخ الكلمات القليلة التي تبادلتها منذ ما يقرب من خمسين عامًا مع سيدة تدعى مادلين بيرو، والتي لست متأكدًا حتى من اسمها الأول. إيرين، هضبة آسي، جوردجييف، فندق شارع دارمييه...

- عليك أن تقنع جينفيف بالمجيء والعيش هنا...

تحدثت معي مرة أخرى بصوت منخفض وقد قرّبت وجهها من وجهي. نظرت مباشرة في عيني، ولقد جعلتني تلك النظرة أشعر بالخدر، كما هو الحال في تلك الأحلام التي تحاول فيها الهروب، لكنك مسمّر في مكانك.

لا بُدّ أنه مرّ وقت طويل جدًا، بضع ساعات أجد صعوبة في تذكُّرها، وهو ما نسميه فجوة الذاكرة. كان المساء قد حل، وغُرفة الاستقبال غارقة في الظلام، وكنت لا أزال على الأريكة الحمراء معها.

نهضت وأضاءت المصباح الموجود بين النافذتين. توجّهت إلى المكتبة واختارت

كتابين من الرفوف.

- تفضّل... يمكنك أن تأخذ المزيد وقتما تشاء...

كان هذان الكتابان ضئيلين ويبدوان أشبه بالكتيبات: مقالات عن بوذية الزن، بقلم سوزوكي، الكتاب الثاني، صدر عن دار أدريان ميزونوف وعنوانه «الطقوس المقدّسة للحب السحري»، بقلم ماريا دي ناجلوسكا(8). ما زلت أحوزهما منذ خمسين عامًا، وأتساءل لماذا تستمر بعض الكتب أو الأشياء في اقتفاء أثرك طوال حياتك، دون علمك، بينما تفقد كتبًا أخرى كانت ثمينة بالنسبة إليك.

في الردهة، كنت على وشك فتح باب الشقة كي أخرج عندما وضعت يدها على ذراعي.

- هل ستقابل جينفيف؟

لقد شعرت بحرج الرد عليها؛ لأنها بدت تحسدني عليها جدًا.

- أردتُ أن أخبرك... يمكنك العيش هنا معها... سأكون سعيدة جدًا باستضافتكما...

وبعد ست سنوات، مشيت على طول شارع جيفروي سانت - هيلير بالقرب من المسجد وجدار حديقة النباتات. كانت تسير أمامي امرأة ممسكة بيد صبي صغير. ذكّرني مظهرها غير المبالي بشخص ما. لم أستطع إلا أن أبقي عينيّ مثبتتين عليها.

أسرعت وتمكّنتُ من اللحاق بهذه المرأة وهذا الصبي الصغير. التفتت إليها. جينفيف دالام. لم نرَ بعضنا بعضًا منذ ست سنوات. ابتسمت لي كما لو أننا تركنا بعضنا بعضًا بالأمس.

- هل تعيشين حضرتك في الحي؟

لا أعرف لماذا خاطبتها بحضرتك. لا شكّ بسبب وجود هذا الصبي الصغير. نعم، لقد كانت تعيش بالقرب من هنا. حاولت أن أبدأ محادثة، لكن يبدو أنها وجدت أنه من الطبيعي أن نسير جنبًا إلى جنب في صمت.

دخلنا حديقة النباتات وسرنا في ممرّ مشجّر يؤدي إلى حديقة الحيوانات. ابتعد

الصبي الصغير عنا وهو يركض، ثم استدار وعاد نحونا. كان يتخيّل أنه يجب عليه الهروب من مطاردين غير مرئيين، وفي بعض الأحيان كان يختبئ خلف جذع شجرة. سألتها إذا كان ابنها. نعم. هل تزوّجت؟ لا. كانت تعيش وحدها مع ابنها. باختصار، التقينا مرة أخرى بعد ست سنوات في الشارع الذي التقينا فيه، ولكن لم أشعر بأن الزمن كان قد مضى. على العكس من ذلك، لقد توقّف، وتكرّر لقاؤنا الأول مع اختلاف: حضور هذا الطفل. وقد تكون هناك لقاءات أخرى معها، في نفس الشارع، كعقارب الساعة التي تجتمع كل يوم عند الظهر ومنتصف الليل. علاوة على ذلك، في الليلة التي التقيت بها للمرة الأولى في مكتبة علوم السحر والتنجيم في شارع جيفروي سانت- هيلير، كنت قد اشتريت كتابًا لفت انتباهي عنوانه: «العود الأبدي لنفس الشيء».

وصلنا أمام أقفاص الحيوانات التي كانت فارغة في ذلك اليوم، باستثناء أكبرها؛ حيث كان النمر محبوسًا. توقف الصبي الصغير وكان يراقبه عبر أسياخ الحديد. جلست أنا وجينفيف دالام على أحد المقاعد في الخلف.

- اصطحبته لرؤية الحيوانات بسبب كتاب الأدغال. يريد أن يُقرأ عليه منه كل ليلة.

حينئذٍ تذكّرتُ الرفوف القليلة القريبة من النافذة الكبيرة، في شقة والدتي الفارغة، التي تطل على الأرصفة. كنت متأكدًا من أنه لا يزال هناك مجلدان من كتاب الأدغال بين روايات هانس فلادا والفيكونت براجيلون، في طبعة مصوّرة. يجب أن أتحلّى بالشجاعة للعودة إلى هناك للتأكد مما إذا لم أكن مخطئًا.

ترددتُ في سؤالها عن اختفائها المفاجئ. ذات مساء، في الفندق الواقع في شارع مونج، قيل لي إنها غادرت غُرفتها «نهائيًا». في اليوم التالي، في استوديوهات بوليدور، أخبرني أحد زملائها بصوت جاف أنها أخذت «إجازة»، دون أن يعطيني أي تفاصيل أخرى. في منزل مادلين بيرو، في شارع فال دو جراس، لم يعُد جرس الباب يجيب. وأنا، الذي اعتدت على الاختفاءات منذ الطفولة، أعترف أن اختفاء جينفيف دالام لم يفاجئني حقًا.

- إذن، لقد غادرتِ دون ترك عنوان؟

هزّت كتفيها. لكنني لم أكن بحاجة إلى تفسيرات. جاء إلينا الصبي الصغير قائلًا إنه كان سيفتح باب القفص ويتنزّه مع النمر الذي أطلق عليه اسم باجيرا، نمر كتاب الأدغال. ثم تمركز مرة أخرى أمام الأسياخ، منتظرًا اقتراب باجيرا منه.

- هل لديك أخبار عن دكتور بيرو؟

وبلهجة لا مبالية، كما لو كانت تتحدث عن أحد معارفها البعيدين، أخبرتني أن الدكتور بيرو لم تغد تعيش في شارع فال دو جراس، بل في الدائرة الخامسة عشرة. هؤلاء الأشخاص الذين تتساءل عمّا حدث لهم، والذين يكتنف اختفاءهم الغموض، وهو غموض لن تتمكن أبدًا من الكشف عنه، حسنًا، ستفاجأ عندما تعلم أنهم ببساطة غيّروا دائرة السكن.

«وأنتِ ما عدتِ تعملين في استوديوهات بوليدور؟». بلى، لا تزال تعمل هناك. لكنها، مثل مادلين بيرو، لم تغد في نفس العنوان. من شارع لا جار، أصبحت استوديوهات بوليدور موجودة الآن إلى جانب ساحة كليشي.

فكّرت مرة أخرى في تلك اللوحات القريبة من مكاتب تذاكر المترو. تتوافق كل محطة مع زرّ على لوحة المفاتيح. وكان عليك الضغط على الزّر لتعرف المكان الذي يجب عليك تغيير الخطوط فيه. تُحدَّد الخطوط على الخريطة بخطوط مضيئة بألوان مختلفة. كنت متأكدًا أنه في المستقبل سيكون كافيًا أن تكتب على الشاشة اسم الشخص الذي قابلته في الماضي وستشير نقطة حمراء إلى المكان الذي يمكنك العثور عليه فيه في باريس.

قلت لها:

- في أحد الأيام، التقيتُ أخاك.

لم تسمع أي خبر عنه منذ ذلك الصباح الذي جاء ليطلب منها المال. ومتى التقيتَ به؟ كان ذلك قبل عامين أو ثلاثة أعوام. كنت أسير في شارع سان ميشيل، ووصلت إلى لا سورس، وهو مقهى كبير كنت أتردّد دائمًا في دخوله، دون أن أعرف السبب جيدًا. تعرفت عليه على الفور بسبب سترته المصنوعة من جلد النمر المقلد. كان يجلس على طاولة خلف الواجهة الزجاجية، ومعه صبي في مثل عمره. وقف ثم نقر مرتين بقبضتيه على النافذة لجذب انتباهي. كان سيلحق بي على

الرصيف فسبقته بدفع باب المقهى، وكأننا نواجه خطرًا في حلم، على يقين أننا قد نستيقظ في أية لحظة. جلست إلى طاولتهما. أصبح الانزعاج الذي كنت أشعر به في كل مرة أمرُّ بمقهى لا سورس أكثر وضوحًا: كان لديّ انطباع بأننا في هذه المنشأة تحت تهديد غارة.

أخرج مفكّرته السوداء من جيب سترته، وبعد أن اطّلع عليها، ابتسم لي بابتسامة ساخرة.

- لقد حاولت الاتصال بك في Val- d 'Or 14-14، قبل بضع سنوات، ولكن يبدو أنك لم تكن موجودًا.

كنت أجلس في مواجهته على أمل أن يخبرني بأخبار جينفيف دالام، وربما عن أسباب اختفائها.

قدّم لي صديقه. ما زال الاسم عالقًا في ذاكرتي: آلان باركين؛ لأنني قرأته بعد عشر سنوات على لافتة متجر صغير للكاميرات المستعملة، والذي كان بلا شك للأشياء المسروقة، شارع دو فاجرام. لقد أغراني الدخول إلى المتجر لأستعيد الذكريات الطيبة عن هذا الشبح.

- جينفيف؟ ألم ترها منذ ثلاث سنوات؟ وأنا أيضًا... لا بُدّ أنها منغمسة في أوراق التاروت والكرات البلّورية، كالعادة...

بدت لي سترته المصنوعة من جلد النمر المقلّد أكثر اهتراءً ممّا كانت عليه عندما التقينا للمرة الأولى. لاحظت وجود تمزّق في أحد طرفي الكُمّ وبقعة على أحد الأكمام. كان لدى آلان باركين بشرة شاحبة ووجه طفل شاخ قبل أوانه- وجه عامل فندق أو فارس سباق.

قال لي شقيق جينفيف دالام:

- إنه مصور فوتوغرافي. إنه يجهّز لي «مجموعة صور» حتى أتمكّن من تقديمها إلى مسؤولي السينما... أريد أن أعمل بالسينما...

كان الآخر يراقبني وهو يدخن سيجارة، وأزعجتني عيناه السوداوان اللزجتان. قال له شقيق جينفيف دالام فجأة:

- لقد حان الوقت لتذهب وتتصل بهم لتحذّرهم.

ثم نهض آلان باركين وسار نحو الجزء الخلفي من الصالة.

- أنا متأكّد من أنك تستطيع مساعدتي، أنت...

قال شقيق جينفيف دالام، وهو يحدّق فيّ بنظرة أرهبتني بشدة، تلك النظرة المتلهفة لأولئك الذين هم على استعداد لسرقة الجثث بعد القصف.

- هل تريد مساعدتي؟

بدا العبوس على ملامح وجهه، ووشت بمرارة معيّنة. عاد الآخر إلى طاولتنا.

- إذن هل حذّرتهم؟

سأل شقيق جينفيف دالام. أومأ الآخر بالإيجاب برأسه وجلس إلى الطاولة. أصابتني حالة من الذعر وجدت صعوبة في السيطرة عليها. اتصل بمَن؟ وممّ حذّرهم؟ انتابني شعور بأنني وقعت في فخ وأن مداهمة الشرطة كانت وشيكة.

قال وهو يشير نحوي:

- سألته إذا كان بإمكانه مساعدتنا.

قال الآخر بابتسامة شريرة:

- نعم، عليك مساعدتنا. وفي كلتا الحالتين، لن ندعك تذهب...

نهضتُ. كنت أتّجه نحو باب المقهى. حذا حذوي شقيق جينفيف دالام وسدّ طريقي. أما الآخر فكان يحتضنني من وراء ظهري وكأنه يريد أن يمنعني من العودة إلى الوراء. فكّرتُ: يجب أن أخرج من هنا قبل مداهمة الشرطة. وبضربة قوية إلى ركبته وكتفه، أطحت بشقيق جينفيف دالام. ثم لكمت الآخر في وجهه. لقد خرجت أخيرًا إلى الهواء الطلق. ركضت في الشارع. كلاهما كان يركض خلفي. تمكّنتُ من الإفلات منهما بالقرب من مقهى كلوني.

- ما كان ينبغي لك أن تتحدث إلى أخي أبدًا. بالنسبة لي، لم يعُد موجودًا. إنه يفعل كل شيء. لقد كان بالفعل في السجن في إيبينال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت هذه الكلمات بصوتٍ منخفض للغاية، وكأنها لا تريد أن يسمعها الطفل الصغير، لكنه كان لا يزال واقفًا أمام أسياخ القفص، يراقب النمر.

سألتها:

- ما اسمه؟

- بيير.

لقد حان الوقت لمعرفة كيف كانت حياتها خلال السنوات الست الماضية. اليوم، 1 فبراير 2017، يؤسفني أنني لم أطرح عليها أسئلة محددة. لكني وقتها كنت على يقين أنها لن تجيبني، أو أن إجاباتها ستكون مراوغة. قالت لي مادلين بيرو ذات مرة: «إنها تسير على طرف حياتها». وكانت قد استخدمت لفظة «السائرة أثناء النوم». وأستحضر هذا الباليه الذي كنت قد رأيته في طفولتي، والذي حفظت في ذاكرتي اسم راقصته ماريا تالشيف(9). ربما كانت جينفيف دالام تسير «على طرف حياتها»، لكنها فعلت ذلك بخطوة رشيقة ومرنة، مثل راقصة.

- هل يذهب بالفعل إلى المدرسة؟

سألتها، مشيرًا إلى بيير.

- في مدرسة على الجانب الآخر من حديقة النباتات.

لم يكن هناك أي معنى للحديث معها عن الماضي. لو كنت قد أشرت إلى بعض التفاصيل التي يعود تاريخها إلى ستة أعوام مضت: المقهى الموجود في شارع لاجار، والفندق الموجود في شارع مونج، والأشخاص القلائل الذين عرّفتنا عليهم «دكتور بيرو»، والمواقف المضطربة إلى حدٍّ ما التي جزْنا إليها؛ فإنها كانت ستتفاجأ للغاية. لقد نسيتْ بالتأكيد كل شيء. أو ربما رأت ذلك من بعيد، أبعد وأبعد مع مرور السنين. وانتهى المشهد إلى الضياع في الضباب. كانت تعيش في الحاضر.

سألتني:

- هل لديك الوقت لترافقنا إلى المنزل؟

أمسكَت بيد بيير، واستدار ليلقي نظرة أخيرة على قضبان القفص؛ حيث يواصل

باجيرا خلفه دورانه الأبدي.

****

مررنا بمكتبة علوم السحر والتنجيم؛ حيث كنا قد التقينا المرة الأولى. ثمة لافتة تشير إلى أنها تفتح في الساعة الثانية. نظرنا إلى الأعمال المعروضة في الفاترينة: قوى الداخل، الأسياد والطريق، مغامرو اللغز...

- ربما يمكننا المجيء إلى هنا هذا المساء لاختيار بعض الكتب.

عرضتُ على جينفيف دالام.

نلتقي في الساعة السادسة، وهو نفس الوقت الذي كان قبل ست سنوات. ففي هذه المكتبة وجدت هذا الكتاب الذي جعلني أفكر كثيرًا: «العود الأبدي لنفس الشيء».

مع كل صفحة كنت أقول لنفسي: لو أمكننا أن نعيش نفس الأوقات، وفي نفس الأماكن، وفي نفس الظروف التي مررنا بها من قبل، ولكن نعيش بشكل أفضل بكثير من المرة الأولى، دون الأخطاء والعقبات والعوائق... سيكون الأمر أشبه بنسخ مخطوطة مغطاة بالشطب... وصلنا نحن الثلاثة إلى منطقة كنتُ أمرُّ بها كثيرًا معها، بين مونج والمسجد وبئر الناسك.

توقفت بالقرب من بناية أكبر من المباني الأخرى، ولها شرفات. هذا هو المكان الذي أعيش. دفع بيير بنفسه باب المبنى. دخلت بعدهما. بدا لي أنني أتيت إلى هنا بالفعل في حياتي الماضية لزيارة شخص ما. قالت جينفيف دالام:

- الساعة السادسة هذا المساء، في المكتبة. وبعد ذلك، يمكنك أن تأتي وتتناول العشاء هنا...

تركاني عند مدخل المبنى. وقفت أسفل الدَرَج. في بعض الأحيان، كان بيير يميل برأسه فوق الدرابزين، كما لو كان يريد التحقق مما إذا كنت لا أزال هناك. وفي كل مرة كنت ألوّح له بذراعي. ثم يظل يراقبني واضعًا ذقنه على الدرابزين، بينما كان على جينفيف دالام أن تفتح باب الشقة. سمعت الباب يُغلق خلفهما، وشعرت بألم في قلبي. ولكن، عندما غادرت المبنى، لم أعد أرى حقًا سببًا للحزن. لبضعة

أشهر أخرى، أو، مَن يدري؟ بضع سنوات، على الرغم من مرور الوقت والاختفاءات المتتالية للأشخاص والأشياء، كانت هناك نقطة ثابتة: جينفيف دالام. بيير. شارع كاترفاج. رقم 5.

أحاول ترتيب ذكرياتي. كل واحدة منها عبارة عن قطعة بازل، لكن الكثير منها مفقود؛ لذلك يظل معظمها معزولًا. في بعض الأحيان أتمكن من تركيب ثلاث أو أربع، ولكن ليس أكثر؛ لذلك، أقوم بتدوين مقتطفات تتبادر إلى ذهني بشكل غير مرتب، أو قوائم أسماء أو جمل موجزة جدًا. آمل أن تجذب هذه الأسماء، مثل المغناطيس، أسماءً جديدة إلى السطح، وأن تنتهي هذه الأجزاء من الجمل بتشكيل فقرات وفصول ترتبط بعضها البعض. في هذه الأثناء، أقضي أيامي في أحد تلك الهناجر الكبيرة التي تشبه الجراجات قديمًا، أطارد الناس والأشياء المفقودة.

جوري بروس

إيمانويل بروكين (مصور)

جان ماير (جان ذو العيون الزرقاء)

جاييل وجاي فانسن

آني كيسليه، 11، شارع ديه مارونيه

فان دير ميرفين

جوزيف ناش، 33، جادة مونتاني

ج. دو فلوري (بائع كتب)، 2، شارع باست، الدائرة 19

أولجا أوردينير، 9، شارع دورانتون، الدائرة 15

أريان باتيه، 3، شارع كونتان بوشار

دوجلاس إيبن

آنا سيدنير

ماري موليتور

أثناء هذا العمل الذي تصنعه متحششا، تتألق أسماء معينة بشكل متقطع مثل الإشارات التي تتيح لك الوصول إلى مسارٍ مُخفًى.

لذا فإن «مدام هوبرسن» التي كنت قد كتبتها بالمصادفة، متبوعة بعلامة استفهام، أيقظت لديّ في البداية ذاكرة غامضة. كنت أحاول ربط «مدام هوبرسن» بأسماء أخرى ظهرت في قائمتي. تمنيت أن يظهر بينهم وبين «مدام هوبرسن» خطٌّ مُضيء مثل الخط -الأخضر أو الأحمر أو الأزرق- الذي يشير إلى المحطات والوصلات إذا أراد المرء الانتقال من كورفيزار إلى ميشيل أنج أوتوي، أو من جاسمان إلى فيل دو كالفير. كنت على وشك الوصول إلى أسفل القائمة، وشعرت وكأنني فاقد للذاكرة، وفي محاولة يائسة لاختراق طبقة من الجليد والنسيان. وفجأة، تأكدت من أن اسم «مدام هوبرسن» مرتبط باسم مادلين بيرو. في الواقع، لقد اصطحبتنا، أنا وجينفيف دالام، عدة مرات، إلى مدام هوبرسن، التي كانت تعيش في شقة في أحد الشوارع الرئيسة في المناطق الغربية- وهو الشارع الذي أتردّد في كتابة اسمه اليوم، وكأن تفصيلة دقيقة جدًا يمكن أن تضرني، بعد مرور ما يقرب من خمسين عامًا، وتستدعي ما نسميه «تحقيقًا إضافيًا» بشأن قضية قد كنت متورطًا فيها.

ربما كنت أريد، حتى ذلك اليوم، أن أمحو مدام هوبرسن هذه من ذاكرتي، وكذلك الأشخاص الآخرين الذين التقيت بهم في تلك الفترة- فلنقُل ما بين السابعة عشرة والثانية والعشرين من العمر.

ولكن بعد نصف قرن، القلائل الذين شهدوا بداياتك في الحياة انتهى بهم الأمر إلى الاختفاء، وعلاوة على ذلك، أتساءل عمّا إذا كان معظمهم سيربط بين ما أصبحت عليه والصورة الضبابية التي يحتفظون بها عن الشاب الذي قد لا يتمكنون حتى من قول اسمه.

كما أن ذاكرتي عن مدام هوبرسن ضبابية تمامًا. امرأة سمراء في الثلاثين من عمرها تقريبًا، ذات ملامح عادية وشعر قصير. اصطحبتنا لتناول العشاء بالقرب من منزلها، في أحد الشوارع المتعامدة مع جادة فوش- الجانب الأيسر من الجادة عندما تدير ظهرك لقوس النصر. وها أنا لم أعد أشعر بأي خوف في إعطاء هذه

التفاصيل الطبوغرافية. أقول لنفسي إن هذا ماضٍ بعيد لدرجة أنه مشمول بما يُعرف في المحكمة بالعفو. من منزلها إلى المطعم، ذهبنا سيرًا على الأقدام، في شتاء ذلك العام، كان شتاءً قاسيًا مثل شتاءات السنوات السابقة مقارنة بشتاء اليوم، الذي يبدو لي رحيمًا، شتاء مثل الشتاءات التي عرفتها في هوت- سافوا؛ حيث كنت في الليل، تتنفّس هواءً جليديًا وشفافًا، كما أنه مُسكِر مثل مخدِّر الإتير. كانت ترتدي مدام هوبرسن معطف فرو كلاسيكيًا إلى حدٍّ ما. لقد عاشت بلا شك حياة أكثر برجوازية من تلك التي تعيشها الآن، وذلك بالنظر إلى الفوضى التي كانت تسود شقتها. كان يوجد في الطابق العلوي من مبنى حديث، غُرفتان أو ثلاث غُرف مليئة باللوحات والأقنعة من أفريقيا وأوقيانوسيا والأقمشة الهندية.

لا أعرف شيئًا ذا بال عن مدام هوبرسن هذه بخلاف ما أخبرتنا به مادلين بيرو عنها في الليلة الأولى التي زرناها فيها. كانت تعيش بمفردها وامرأة مطلقة لرجل أمريكي. على ما يبدو، لقد عرفت الكثير من الأشخاص في عالم الرقص. أخذتنا ذات مساء، بعيدًا جدًا، إلى حافة حوض فيليت، إلى رجل قالت لنا إنه ينظم، كل عام في نفس الموعد، حفلًا على شرف الراقصين. هناك، في شقة صغيرة، فوجئت برؤية نجوم الباليه هؤلاء الذين أعجبت بهم في تلك الفترة، ومن بينهم راقصة شابة من الأوبرا أصبحت فيما بعد راهبةً كرملية. إنها لا تزال على قيد الحياة حتى اليوم، وربما هي الوحيدة التي يمكنها أن تخبرني بالضبط مَنْ هو عاشق الباليه الغامض هذا.

وجدت في دفاتري ملاحظة كتبتها منذ أكثر من عشر سنوات في الأول من مايو 2006:

«الرجل ذو الاسم التركي الذي كان، في الستينيات، يقيم كل عام حفلًا في منزله للراقصين (نورييف، بيجار، بلابيليه، إيفيت شوفيريه، إلخ...). كان يعيش على أحد أرصفة حوض فيليت أو قناة أورك». وللتأكُّد من أن هذه الذكرى حقيقية بالفعل؛ بحثت في الدليل عن اسم هذا الرجل وعنوانه، حيث إنه مكتوب بقلم حبر أزرق:

11، رصيف جيروند (الدائرة 19)

امرام ر. كومبا 73.14

مويال ماتاياس كومبا 82.06 (دليل 1964)

يسبق هذا العنوان وهذين الاسمين علاماتُ استفهام، بنفس الحبر الأزرق.

كان عليّ أن أرى مدام هوبرسن للمرة الأخيرة، في أغسطس 1967.

لكن قبل الحديث عن هذا اللقاء، أودُّ أن أوضّح هذا: لقد صادف أن قابلت نفس الأشخاص عدة مرات في شوارع باريس، أشخاص لم أكن أعرفهم. وبسبب أني كنت أجدهم في طريقي؛ صارت وجوههم مألوفة بالنسبة إليّ. أعتقد أنهم كانوا يجهلونني، وأنني كنت الوحيد الذي لاحظ لقاءات المصادفة هذه. وإلا لكنّا قد رحّبنا ببعضنا بعضًا، أو جرى بيننا حوار. الأمر الأكثر إزعاجًا هو أنني كثيرًا ما التقيت بنفس الشخص، ولكن في أحياء مختلفة وبعيدة عن بعضها البعض، وكأن القدر -أو المصادفة- يصرُّ على أن نتعرّف على بعضنا بعضًا. وفي كل مرة، كنت أشعر بالندم؛ لأنني تركته يمرُّ دون أن أقول أي شيء. لقد تشعّبت طرق كثيرة عند مفترق الطرق، وقد أغفلت إحداها، وربما كان هو الطريق الصحيح. ولتعزية نفسي؛ دوّنتُ بدقّةٍ ملاحظاتي في دفاتر اللقاءات التي لا مستقبل لها، وحدّدتُ الموقع الدقيق والمظهر الجسدي لهؤلاء الأشخاص المجهولين. وهكذا، فإن باريس مليئة ببؤر توتُّر ونماذج متعددة يمكن أن تتخذها حياتنا.

مدام هوبرسن، التقيتها للمرة الأخيرة في شهر أغسطس الماضي، عندما كنت أعيش في غُرفة صغيرة في مجموعة من المباني- مربع سكني يطل على شارع جوفيون سان سير. في ذلك الصيف، كان الجو حارًا جدًا وكان الحي مهجورًا. لم يعُد لدينا حتى الشجاعة لركوب المترو بحثًا عن القليل من الإثارة في وسط باريس. لقد تركنا أنفسنا للخمود. المطعم الوحيد المفتوح في شارع جوفيون- سان- سير كان له اسم مضحك: الطريدة. كنت أخشى ألّا يتم استقبالي بشكل جيد في هذا المكان. تخيّلتُ بعض الزبائن المشبوهين مجتمعين للعب البوكر، لكن في تلك الليلة قررت أن أدفع الباب.

كان ديكور الطريدة هو ديكور نُزُل ريفي. بار عند المدخل وقاعتان متجاورتان؛ حيث تطل على حديقة صغيرة. فجأة، تفاقم شعور الغرابة الذي انتابني في باريس في أغسطس. لدرجة أنني أردت الرجوع وأعود بأسرع ما يمكن إلى رصيف شارع جوفيون سان سير وضجيج السيارات النادرة جدًا التي تسير نحو محطة بورت

مايوه. لكن قادتني سيدة نحو القاعة الخلفية، وأشارت إلى طاولة على حافة الحديقة.

جلست وشعرت وكأنني عالقٌ في حلم. لا شك في أن هذا الشعور كان بسبب الأيام التي لا نهاية لها، التي لم أتحدث فيها مع أي شخص.

لم يسبق أن بدت لي عبارة «منقطع عن العالم» صحيحة إلى هذا الحد. لم يكن هناك زبائن، باستثناء امرأة واحدة تجلس في الجزء الخلفي من القاعة. كانت ترتدي معطفًا من الفرو، وهو ما فاجأني في منتصف شهر أغسطس. يبدو أنها لم تلاحظ وجودي. لقد تعرفتُ على السيدة هوبرسن. لم تتغير، وكان معطف الفرو الخاص بها هو نفس المعطف الذي كانت ترتديه قبل ثلاث سنوات.

وبعد لحظة من التردد توجّهتُ نحوها.

- السيدة هوبرسن؟

نظرت إليّ، ويبدو أنها لم تتعرف عليّ.

- لقد تقابلنا عدة مرات منذ ثلاث سنوات... مع مادلين بيرو...

كانت لا تزال تحدّق بي، وتساءلتُ عمّا إذا كانت قد سمعتني.

- لكن نعم... بالطبع...

قالت لي فجأة، كما لو كانت غائبة للحظة.

- مع مادلين بيرو... وهل لديك أي أخبار عن مادلين بيرو؟

أرى أنها كانت تحاول استعادة موطئ قدمها. لقد أيقظتها للتو فجأة من نوم عميق.

- لا، لا أخبار.

ابتسمت ابتسامة محرجة. وكانت تبحث عن الكلمات.

- تذكرين؟

قلت لها.

- لقد اصطحبتنا إلى حفلة... مع كل الراقصين.

- نعم... نعم... بالطبع... لا أعرف إذا كانت هذه الحفلة لا تزال تُقام كل عام...

قد يعتقد المرء أنها كانت تشير إلى حدث بعيد جدًا، لم يتجاوز عمره ثلاث سنوات، ولكنه بالنسبة إليها ينتمي إلى حياة أخرى. ويجب أن أقول إنه انتابني نفس الشعور عندما تذكّرتُ كل هؤلاء الضيوف الجالسين على الأرض في غُرفتي الشقة الصغيرة، والبرد، في تلك الليلة الشتوية، فوق حوض لا فيليت أو قناة أورك.

- هل ما زلتِ تعيشين في نفس العنوان؟

ربما طرحتُ عليها هذا السؤال لأحصل على إجابة دقيقة، ولم يَعُد لديَّ شعور بأنني أواجه شبحًا.

- دائمًا في نفس العنوان...

لقد ضحكت ضحكة صغيرة، وكنت ممتنًا لها؛ فلم تَعُد تبدو وكأنها شبح.

- لديك أسئلة مضحكة... وأنت أيضًا، دائمًا في نفس العنوان؟

يبدو أنها تسخر مني بلطف.

- اجلس. إذا كنت تريد أن تطلب شيئًا... لقد انتهيت من العشاء...

جلست في مواجهتها. كنت أنوي الرحيل بعد لحظات بحجّة أنني مضطرٌ للاتصال هاتفيًا. ولكن هناك، بمجرد جلوسي، شعرت أنه سيكون من الصعب عليّ النهوض وعبور القاعة باتجاه الباب. لقد أصابني خدر.

وقالت لي:

- لا تهتمّ بمعطف الفرو هذا. لقد ارتديته هذا المساء؛ لأنني اعتقدت أن هناك انخفاضًا في درجة الحرارة. كنت مخطئة.

لكن لم أكن بحاجة إلى تفسير. عليك أن تأخذ الناس كما هم، بمعطف الفرو أم لا. إذا لزم الأمر، اطرَح عليهم بعض الأسئلة غير اللافتة، بلطف، دون إثارة شكوكهم، لفهمهم بشكل أفضل. وعلى أية حال، لم أقابل مدام هوبرسن إلا ثلاث أو أربع مرات، ولم أتخيّل أبدًا رؤيتها مرة أخرى بعد ثلاث سنوات. لقاءات قصيرة جدًا،

لدرجة أنه كان من الممكن نسيانها بسرعة.

- وكيف عرفتِ هذا المكان؟

لقد سألتها. الطريدة؟

- لقد أحضرني صديق إلى هنا عدة مرات. لكنه ذهب في إجازة...

لقد تحدثت بصوت حازم وواضح، وكل ما قالته للتوّ كان متماسكًا تمامًا. كثيرًا ما نجد أنفسنا وحيدين في باريس في شهر أغسطس وفي أماكن غامضة، مثل هذا الفصل؛ حيث يولد انطباع بأن الزمن قد توقّف- أماكن تختفي بمجرد عودة الحياة إلى مجراها، واستعادة المدينة مظهرها المعتاد.

- ألا تتناول العشاء؟ هل تريد أن تشرب شيئًا؟

أمسكت بإبريق على الطاولة، وسكبت في كأس طويلة اعتقدت أنه ماء، لكن مذاقه فاجأني عندما أخذت رشفة: كحول قوي جدًا. ثم سكبت لنفسها. لم تشرب رشفة واحدة، بل نصف كأسها دفعة واحدة، مع حركة خفيفة لرأسها.

- أنتِ لا تشرب؟

بدت مُحبطةً ومتضايقة بعض الشيء، كما لو كنت قد أعدتها إلى عُزلَتها؛ لذا، أفرغت كأسي أيضًا.

قالت لي:

- كما ترى، ما زلنا بحاجة إلى الإحماء على الرغم من الحرارة.

أحسست أنها تريد إضافة شيء ما، لكنها كانت مترددة، وأخذت تبحث عن الكلمات.

- أريد أن أخبرك سرًا...

وضعت يدها على يدي لتمنح نفسها الشجاعة.

- على الرغم من أن الجو حارٌ جدًا، لكن لو تعلم كم أشعر بالبرد دائمًا...

نظرت إليّ نظرة خجولة ومتسائلة في الوقت نفسه، بينما كانت تنتظر إجابة، أو

بالأحرى تشخيصًا يمكن أن يُطمئنها.

غادرنا الطريدة. كانت تتكئ على ذراعي، على طول شارع جوفيون سان سير. ثمة نسمات في الجو، إنها للمرة الأولى منذ أسبوعين.

قلت لها:

- في الحقيقة، كنتِ على حقٍّ في ارتداء معطف الفرو.

ربما أرادت العودة إلى المنزل سيرًا على الأقدام. ولكن حينئذٍ لم نكن نسير في الاتجاه الصحيح. أشرت إليها.

- أريد أن أمشي قليلًا، إلى أول محطة سيارات أجرة.

في هذا الوقت المتأخر وفي هذا الفصل، لم يَعُد هناك أية حركة مرور على طول شارع جوفيون سان سير. من المضحك أنه بينما أكتب هذا اليوم، أسمع صدى خطواتنا -أو بالأحرى خطواتها- على الرصيف الخالي. وصلنا إلى المربع السكني الذي أعيش فيه. للحظة، أردت أن أقول وداعًا وأخبرها أن شخصًا ما كان ينتظرني في غُرفتي- غُرفة هرمية السقف وصغيرة جدًا، لدرجة أنه بمجرد دخولي كان عليّ أن أنقلب على السرير حتى لا تصطدم جبهتي بالعارضة. وعند هذه الفكرة، لم أستطع قمع موجة من الضحك. لقد اتكأت بقوة أكبر على ذراعي.

- ما الذي يُضحِكك؟

لم أعرف بم أجيبها. هل كانت حقًّا تتوقع إجابة؟ بيدها الحرة، رفعت ياقة معطفها من الفرو، كما لو أن النسيم قد برد فجأة.

- هل لا يزال في شقّتكِ أقنعة من أفريقيا وأوقيانوسيا؟

سألتها كي أكسر حاجز الصمت.

توقّفت ونظرت إليّ بدهشة.

- تتذكّر ذلك...

نعم كثيرًا... لكني أتذكّر أيضًا تفاصيل حياتي، الأشخاص الذين حاولت جاهدًا أن أنساهم. ظننت أنني قد نجحت في ذلك، ودون أن أتوقّع ذلك، وبعد عقود، يطفون

على السطح، مثل الغرقى، عند منعطف شارع ما، في أوقات مُعيَّنة من اليوم.

كنّا في محطة بورت دو شامبيريه. ثمة سيارة أجرة واحدة تنتظر في المحطة، أمام مجموعة المباني ذات واجهات من القرميد.

- هل يمكن أن تأتي معي؟

سألتني السيدة هوبرسن.

مرّةً أخرى، كدتُ أن أخبرها أن هناك من ينتظرني في غُرفتي. لكن فجأة راودني بعض التردّد بشأن الكذب عليها. هناك الكثير من الأكاذيب، بالفعل، لأتخلّص من الناس، والعديد من المباني ذات المخارج المزدوجة فقط لأتركهم على رصيف، والعديد من المواعيد التي لم أذهب إليها...

استقللت معها التاكسي. اعتقدت أنها ستكون رحلة قصيرة جدًا إلى منزلها وسأعود سيرًا على الأقدام.

قالت للسائق:

- إلى فرساي، شارع لا رين.

بقيت صامتًا. كنت أنتظر أن تعطيني تفسيرًا.

- أخشى العودة إلى المنزل. كل هذه الأقنعة التي كنتَ تُحدّثني عنها منذ قليل... تراقبني، ونواياها غير حسنة تجاهي...

قالت ذلك بنبرة جادّةٍ لدرجة أنني فوجئت. وبعد ذلك، عثرت على صوتي.

- أعتقد أنكِ مخطئة. هذه الأقنعة ليست سيئة كما تظنين...

لكنني أدركت أنه ليس لديها أية رغبة في الضحك على الإطلاق. كانت قد انعطفت سيارة الأجرة إلى شارع جوفيون سان سير، في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي اتبعناه منذ قليل. وصلنا إلى المكان الذي أعيش فيه.

قلت لها:

- يجب أن أعود إلى المنزل. إنه هنا بالضبط، على اليمين...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أرجو أن ترافقني إلى فرساي.

كانت اللهجة غير قابلة للرد، كما لو كان ذلك التزامًا أخلاقيًا من جهتي. توقّفت سيارة الأجرة عند الإشارة الحمراء أمام محطة الإطفاء الكبيرة. كنت قد حاولت أن أفتح الباب وأغادر معتذرًا بصيغة مهذّبة موجزة. لكنني قلت لنفسي إن لديّ مُتّسعًا من الوقت للقيام بذلك أثناء الرحلة إلى فرساي. فكّرتُ في هذا العمل الذي كنت قد قرأته، الأحلام ووسائل توجيهها، حيث قيل إنه يمكن للمرء أن يقطعها في أية لحظة، بل ويحوّل مسارها؛ لذا، ما كان عليّ سوى أن أركّز قليلًا حتى يصل سائق التاكسي بعد قليل أمام منزل مدام هوبرسن، وقد نسي أنه كان علينا الذهاب إلى فرساي. والسيدة هوبرسن أيضًا.

- هل أنت متأكّدة من أنك لا تريدين العودة إلى المنزل؟

قلت لها بصوت خفيض.

قزّبت وجهها من وجهي، وقالت لي بدورها، بصوت خفيض:

- لا يمكنك معرفة شعور العودة إلى هذه الشقة كل مساء... وأن تجد نفسك وحيدًا مع هذه الأقنعة... ومن جهة أخرى، منذ فترة، أصبحت خائفة من ركوب المصعد...

كنت لا أزال أصغر من أن أعرف القلق الذي كانت تشعر به عندما تعود إلى المنزل بمفردها. لم يكن لديّ أي مانع أن أستقلّ المصعد، ثم أصعد السُّلّم الصغير وأتبع الممر المؤدي إلى هذه الغُرفة هرمية السطح؛ حيث لا أستطيع الوقوف. واليوم، عندما أصبحت أكبر من السيدة هوبرسن بأربعين عامًا تقريبًا في ذلك الوقت، أقول لنفسي إنه كان من الغريب في مثل سنّها أن تترك نفسها ليغزوها مثل هذا القلق. لكن ربما لا ينبغي لنا أن نعطي مصداقية لأفكار معيّنة مثل: «لا مبالاة الشباب».

توقّفنا عند إشارة حمراء أخرى قريبة جدًا من مطعم الطريدة. على طول الطريق -حدّثت نفسي- ستسمح لي الإشارات الحمراء الأخرى بمغادرة هذه السيارة. لن تكون هذه هي المرة الأولى التي أخوض فيها تجربة مماثلة: في مناسبتين، هربت من سيارة كانت تقلّني إلى المدرسة مساء الأحد، وفي وقت لاحق، عندما كنت في العشرين من عمري تقريبًا، عندما وجدت نفسي في وقت متأخر جدًا بصحبة عدة

أشخاص في سيارة شيفروليه كان سائقها مخمورًا. ولحسن الحظ، كنت جالسًا إلى جانب الباب.

«ألا تريدين العودة حقًا إلى المنزل؟» سألت السيدة هوبرسن مرة أخرى.

- ليس الآن. غدًا، عندما يبزغ ضوء النهار.

وصلنا إلى حافّة غابة بولونيا، وكانت مدام هوبرسن قد أغلقت عينيها. لقد تحقّقت ممّا إذا كان الباب مغلقًا من الداخل، كما يحدث أحيانًا في الليل في سيارات الأجرة. لا. لا يزال لديّ بعض الوقت لاتخاذ القرار.

عند محطة بورت أوتي، سقط رأس مدام هوبرسن على كتفي. كانت قد نامت. إذا غادرت السيارة، فسوف يتعيّن عليّ أن أفعل ذلك بسلاسة، وأن أنسلّ من المقعد دون أن أغلق الباب. كان رأسها، الخفيف جدًا على كتفي، بمثابة علامة ثقة من جانبها، ولقد تردّدتُ في خيانة هذه الثقة. محطة بورت دو سان كلو. سنعبر نهر السين، وندخل النفق، ثم نتجه إلى الطريق السريع الغربي. ولن يكون هناك المزيد من الإشارات الحمراء.

خلال هذه الفترة من حياتي، ومنذ أن كنت في الحادية عشرة من عمري، لعب الهروب دورًا كبيرًا؛ الهروب من المدارس الداخلية، والفرار من باريس في قطار ليليّ في اليوم الذي كان عليّ الذهاب فيه إلى ثكنة رويي من أجل خدمتي العسكرية، والمواعيد التي لم أحضرها، أو العبارات الطقوسية من أجل التسلّل:

«انتظر، سأذهب لشراء سجائر...».

وهذا الوعد الذي قطعته على نفسي عشرات وعشرات المرات، دون أن أفي به مطلقًا:

«سأعود فورًا».

واليوم أشعر بالندم. على الرغم من أنني لست موهوبًا جدًا في الاستبطان، إلا أنني أودّ أن أفهم لماذا كان الهروب، بطريقة ما، أسلوبَ حياتي. واستمر هذا لفترة طويلة جدًا، أودّ أن أقول حتى سنّ الثانية والعشرين. هل يمكن مقارنته بأمراض الطفولة التي لها أسماء مُضحِكة: السعال الديكي، وجدري الماء، والحمى القرمزية؟

وبعيدًا عن حالتي الشخصية، كنت أحلم دائمًا بكتابة بحث عن الهروب بأسلوب هؤلاء الأخلاقيين وكتاب المذكرات الفرنسيين الذين أعجبت بأسلوبهم كثيرًا منذ مراهقتي: الكاردينال دو ريتز، ولا برويير، ولاروشفوكو، وفوفينارج... لكن الشيء الوحيد الذي يمكنني تفسيره هو التفاصيل الملموسة والأماكن واللحظات الدقيقة. على وجه الخصوص، بعد ظهر هذا اليوم من صيف عام 1965، عندما وجدت نفسي أمام حانة مقهى ضيق في بداية شارع سان ميشيل، والذي كان يتميّز عن المقاهي الأخرى في المنطقة. لم يكن لديه زبائن من الطلاب. بار طويل مثل تلك الموجودة في بيجال أو سان-لازار. أدركت بعد ظهر ذلك اليوم أنني تركت نفسي أنجرف، وأنني إذا لم أتصرف على الفور، فإن التيار سيجرفني بعيدًا. وكنت على قناعة بأنني لست في خطر، وأنني استفدت بما يشبه الحصانة كمتفرج ليلي، وهو اللقب الذي أطلق على كاتب من القرن الثامن عشر اكتشف أسرار الليالي الباريسية. ولكن هنالك، قادني فضولي إلى أبعد من ذلك بقليل. شعرت بما نسميه «رياح القذيفة». كان علي أن أختفي في أسرع وقت ممكن إذا لم أرغب في الوقوع في مشكلة. بالنسبة إلي، سيكون هذا الهروب أكثر أهمية من الهروبات الأخرى. لقد وصلت إلى القاع وكل ما بقي هو أن أركل بقوة بكعب قدمي حتى أعود إلى السطح.

بالأمس، كان قد جرى حادثٌ أشرت إليه بعد عشرين عامًا، في عام 1985، في فصل من إحدى رواياتي. لقد كانت طريقة للتخلص من ثِقلٍ ما، والكتابة بالأبيض والأسود كنوع من نصف الاعتراف. لكنّ عشرين عامًا كانت فترة زمنية قصيرة جدًا بحيث لا يمكن اختفاء بعض الشهود، ولم أكن أعرف ما هي المدة الزمنية التي في نهايتها تتخلّى العدالة عن ملاحقة المذنبين أو المتواطئين معهم وتلقي عليهم بشكل نهائي حجاب العفو والنسيان.

****

تلك التي كنت قد التقيتها لأول مرة قبل بضعة أسابيع، والتي أتردّد في ذكر اسمها -ما زلت أشعر بالقلق، بعد خمسين عامًا، من التفاصيل الدقيقة جدًا التي قد تسمح لنا بالتعرف عليها- اتّصلت بي هاتفيًا في وقت متأخر جدًا من الليل، في شهر يونيو هذا من عام 1965، لتخبرني أن «حادثًا» قد وقع في شقة مارتين هيوارد،

2، جادة رودان، حيث تعزفنا على بعضنا البعض، وألتقي أشخاصًا متباينين في أمسيات الأحد، التي أطلقت عليهم مارتين هيوارد اسم «بوم الليل».

توسّلت لي أن آتي لأقابلها. في صالة الشقة، كان جسد لودو. ف. ممدّدًا على السجادة، وهو الشخصية الأكثر اضطرابًا في مجموعة «بوم الليل» هذه. لقد قتلته «بالمصادفة»، كما أخبرتني، بينما كانت تمسك مسدسًا «وجدته على أحد رفوف المكتبة». أعطتني هذا السلاح الذي أعادته إلى جرابه المصنوع من جلد الغزال. ولكن لماذا كانت في تلك الليلة وحدها مع لودو. ف. في الشقة؟ قد تشرح لي كل شيء «بمجرّد أن نبتعد عن هنا، في الهواء الطلق».

ودون تشغيل قابس الكهرباء المؤقّتة، أخذت ذراعها وساعدتها على نزول الدرج في الظلام بدلًا من استخدام المصعد. في الطابق الأرضي، يوجد ضوء خلف الباب الزجاجي للبواب. قُدتها نحو باب المبنى، وعندما مرَرنا بغُرفته، خرج منها رجل قصير ذو شعر بُني داكن بقصّة شَعر قصيرة. كان يراقبنا في الغبشة، بينما كنت أتخبّط في فتح باب المبنى. ذلك الذي كان مغلقًا. وبعد لحظة -وبدت لي هذه اللحظة لا نهائية- لمحت على الحائط الزرّ الذي يتحكّم في فتح الباب. سمعت النقرة وفتحته. قمت بكل حركاتي بالحركة البطيئة لأجعلها أدقّ ما تكون، ولم أرفع عيني أبدًا عن الرجل الصغير ذي الشّعر القصير كما لو كنت أريد أن أتحداه وأسمح له أن يتذكّر ملامح وجهي بوضوح. بدأ صبرها ينفد، وجعلتها تخرج أمامي، ثم، قبل أن أتبعها، بقيتُ بلا حراك لبضع ثوانٍ داخل فتحة باب المبنى، وعيناي مثبّتتان على البواب. انتظرت أن يسير نحوي، لكنه أيضًا ظلّ بلا حراك يراقبني. لقد توقّف الزمن. كانت تسبقني بقرابة عشرة أمتار، ولم أعُد أعلم إذا كان بإمكاني اللحاق بها، كانت خطوتي بطيئة للغاية، أبطأ وأبطأ، مع هذا الشعور بالطفو والانهيار مع أدنى حركاتي.

****

وصلنا إلى ساحة تروكاديرو. قرابة الساعة الثانية صباحًا. كانت المقاهي قد أغلقت. شعرت بالهدوء أكثر فأكثر، وأتنفس بعمق أكثر فأكثر، دون أي جهد للتركيز الذي يبذله المرء عادة أثناء تمارين اليوجا. من أين جاءت هذه السكينة؟ وهذا الصمت والهواء النقي في ساحة تروكاديرو؟ بدا لي هذا الهواء ناعمًا ومثلجًا مثل

هواء منحدرات هوت سافوا. لقد كنت بالتأكيد تحت تأثير العمل الذي كنت أقرؤه منذ بضعة أيام، «الأحلام ووسائل توجيهها»، للكاتب هيرفيه دو سان دني، والذي سيظل طوال هذه الفترة أحد كتبي الموجودة بجوار سريري... شعرت وكأنني أوصلت لها هدوئي، وأنها تسير الآن بنفس وتيرة خطوتي. سألتني إلى أين نحن ذاهبون بالضبط. لقد فات الأوان للعودة إلى مونمارتر؛ إلى فندق ألسينا أو إلى منزلها في سان- مور- ديه فوسيه. لمحت لافتة فندق في بداية أحد الشوارع المؤدية إلى ساحة تروكاديرو. لكنني احتفظت بالمسدس الموجود في جرابه المصنوع من جلد الغزال في جيب سترتي. بحثت عن فتحة؛ حيث يمكنني إسقاطه. وبينما كنت أحمله في يدي، رمتني بنظرات قلقة. حاولت طمأنتها. كنّا وحدنا في الساحة. وإذا كان هناك شخص ما، بالمصادفة، يراقبنا من النافذة المظلمة للمبنى، فليس لذلك أية أهمية. لم يكن ليستطيع أن يفعل أي شيء ضدنا. كان ذلك كافيًا لتحويل الحلم، بحسب نصائح هيرفيه دو سان دني، مثل إدارة عجلة القيادة قليلًا. وكانت السيارة تسير بسلاسة، وهي إحدى السيارات الأمريكية في ذلك الوقت، والتي تبدو وكأنها تنزلق على الماء، في صمت.

****

تجوّلنا في الساحة، وانتهى بي الأمر برمي المسدس في قاع سلّة مهملات، أمام المتحف البحري. ثم اتجهنا إلى الشارع الذي يقع فيه الفندق الصغير الذي كنت قد رأيت لافتته. فندق مالاكوف. منذ ذلك الحين، صادف أنني مررتُ به، وفي إحدى الأمسيات قبل خمس سنوات، عندما كان الجوّ حارًا مثل تلك الليلة من يونيو 1965، توقّفتُ عند المدخل، مع فكرة أن أحجز غُرفة، ربما هي نفسها التي كانت في تلك الليلة. قلت لنفسي إن هذا سيكون بمثابة ذريعة لتصفُّح السجلات والتحقُّق ممّا إذا كان اسمي لا يزال موجودًا هناك منذ 28 يونيو 1965. لكن هل احتفظوا بالسجلات القديمة التي كان يراجعها من حين لآخر أولئك الذين كانوا جزءًا من لواء الشرطة الذي يُسمّى «شرطة الغُرف المفروشة»؟ في تلك الليلة قبل خمسين عامًا، في مكتب الاستقبال، لم يكن هناك سوى الحارس الليلي بسبب تأخُّر الوقت. وقفْت جانبًا وكنتُ أنا مَن كتب اسم عائلتي واسمي الأول وتاريخ ميلادي في السجل، على الرغم من أن الحارس لم يطلب منّا شيئًا، ولا حتى وثيقة هوية. كنت متأكدًا من أن هيرفيه دو سان دني، الذي يعرف الأحلام وكيفية توجيهها

جيدًا، كان سيوافق على حرصي، وبينما كنت أكتب الحروف -وكنت أودّ أن أرسم الخطوط الصاعدة والهابطة، لكن قلم الحبر لم يسمح بذلك- شعرت بهدوء وارتياح لم أشعر بهما من قبل حتى ذلك الحين. حتى إنني أعطيت العنوان 2، جادة رودان، حيث نام لودو. ف. وهو ممدّد على السجادة، آخر نومة له.

****

وفي الأيام التالية، القلق الذي كان قد سيطر عليّ في حانة التبغ هذه في بداية شارع سان ميشيل لم يعُد حادًا جدًا. ربما كان ذلك بسبب قرب المحكمة ومقر الشرطة اللذين يمكن رؤيتهما على مسافة قريبة جدًا على الجانب الآخر من الجسر. كنت أعلم أن ثمة مفتشين يترددون على بعض مقاهي ساحة القديس ميشيل. من الآن فصاعدًا، بقينا في مونمارتر، وهناك يبدو لي أننا شعرنا بأمان أكبر، وانتهى بنا الأمر إلى التساؤل عمّا إذا كانت أحداث تلك الليلة حقيقية بالفعل.

تنتابني هواجس ما حول الحديث عن تلك الأيام. هذه هي الأيام التي لا تُنسى والأخيرة من فترة شبابي. ومن ثمّ، لن يكون لأي شيء نفس الألوان تمامًا. هل كان موت لودو. ف؛ الرجل الذي بالكاد نعرفه، بمثابة نوع من الدعوة إلى النظام؟ بعد مرور بعض الوقت على هذا الحدث، كثيرًا ما كنت أستيقظ فزعًا من طلقات نارية، وبعد لحظة، أدركت أن هذه الطلقات لم تكن قد أُطلِقت في الحياة الحقيقية، بل في حلمي. كل يوم، عندما كنت أغادر فندق ألسينا، كنت أذهب لشراء الصحف من متجر صغير في شارع كولينكور-فرانس سوار، ولورور، تلك التي نجد فيها أخبار الحوادث- وكنت أقرؤها دون علمها، حتى لا أسبب لها القلق. لا شيء عن لودو. ف. على ما يبدو، لم يكن أحد مهتمًا به. أو ربما تمكّن الناس من حوله من إخفاء موته. لا شك من أجل تجنّب التعرّض للخطر. في الأعلى قليلًا، في شارع كولينكور، في شرفة مقهى Rêve، كتبت على هامش إحدى الصحف أسماء هؤلاء الأشخاص الذين تذكرتهم عندما كانوا يحضرون «حفلات» مساء الأحد، حيث التقيتها.

واليوم، بعد مرور خمسين عامًا، لا يسعني إلا أن أكتب مرة أخرى بعضًا من هذه الأسماء على هذه الورقة البيضاء: مارتين وفيليب هيوارد، جان تيراي، أندريه كارفيه، جي لافين، روجيه فافار وزوجته ذات النمش والعينين الرماديتين... وآخرين...

لم يزوّدني أيٌ منهم بأي أخبار عنه خلال الخمسين عامًا الماضية. لا بُدّ أنني كنت غير مرئي بالنسبة إليهم في ذلك الوقت. أو بكل بساطة، هل نعيش تحت رحمة صمت معين؟

يونيو. يوليو 1965. مرّت أيام ذلك الصيف في مونمارتر، وبدت جميعها متشابهة -في الصباح وبعد الظهر المشمسين- كل ما عليك فعله هو الانزلاق في تيارها الهادئ، وأن تركب موجاتها. سينتهي بنا الأمر إلى نسيان هذا الرجل الميت الذي يبدو أنها لا تعرف عنه الكثير، باستثناء أنها كانت تعرفه عندما كانت تعمل في محل للعطور في شارع بونتيو. لقد ذهب للتحدث معها وقابلته مرة أخرى في المقهى المجاور لمحل العطور؛ حيث تتناول عادة ساندويتش على الغداء. لقد اصطحبها عدة مرات إلى حفلات مساء الأحد التي كان ينظمها مارتين هيوارد، في جادة رودان؛ حيث تعرفنا على بعضنا بعضًا. حسنًا، هذا كل شيء. وما حدث هناك تلك الليلة كان مجرد «حادث». ولم تكن تريد أن تخبرني المزيد.

****

عندما أفكر في ذلك الصيف، أشعر وكأنه منفصل عن بقية حياتي. بين قوسين، أو بالأحرى علامات حذف.

وبعد سنوات قليلة، عشت في مونمارتر، في 9 شارع لوريون، مع المرأة التي أحببتها. ولم يعُد الحي كما كان. وأنا كذلك. لقد أعاد كلانا العثور على براءتنا. بعد ظهر أحد الأيام، توقّفتُ أمام فندق ألسينا، الذي كان مقسّمًا إلى غُرف مستأجرة. إن مونمارتر في صيف عام 1965، كما اعتقدت أنني رأيته في ذاكرتي، بدا لي فجأة وكأنه مونمارتر خيالي. ولم يعُد هناك ما أخشاه.

ونادرًا ما كنا نعبر الحدود إلى الجانب الجنوبي، تلك الحدود التي يحدّدها فضاء شارع دو كليشي. بقينا في قطاع ضيق إلى حدٍّ ما؛ حيث يبلغ شارع كولينكور. في شهر يوليو هذا، كنا الوحيدين في شرفة مقهى Rêve، وفي فترة ما بعد الظهر، وحدنا أيضًا، في مكان أعلى قليلًا، في غبشة سان كريستوبال، في منتصف درج محطة لامارك- كولينكور. كانت أفعالنا دائمًا هي نفسها، في نفس الأماكن، في نفس الأوقات، وتحت نفس الشمس. لديّ ذكريات عن الشوارع المهجورة في أيام موجات الحر. ومع ذلك كان هناك تهديد في الجو. هذه الجثة الملقاة على السجادة،

في الشقة التي غادرناها دون أن نطفئ النور... ستظل النوافذ مضاءة في وضح النهار، كإشارة إنذار. حاولت أن أفهم سبب بقائي بلا حراك لفترة طويلة في حضور البواب. ويا لها من فكرة مضحكة أن أكتب على استمارة فندق مالاكوف اسمي الأول واسم العائلة، وعنوان الشقة، 2، جادة رودان... سندرك أن «جريمة قتل» قد ارتُكِبت في نفس الليلة في هذا العنوان. عندما كنت أملأ الاستمارة، ما الدوخة التي أصابتني؟ إلا إذا كان عمل هيرفيه دو سان دُني، الذي كنت أقرؤه في الوقت الذي اتصلت فيه بي لتطلب مني أن أنضمَّ إليها، قد أربك ذهني: كنت متأكدًا من أنني كنت أعيش حلمًا سيئًا. لم أكن أخاطر بأي شيء، يمكنني «توجيه» هذا الحلم كما أريد، وإذا أردت، أستيقظ في أية لحظة.

في وقت مبكّر من بعد الظهر، كنّا نسير على منحدر شارع كولينكور، المهجور تحت أشعة الشمس، وشعرنا بأننا السكان الوحيدون في مونمارتر. قلت لها، لأطمئن نفسي، إننا كنا في ميناء صغير في البحر الأبيض المتوسط في وقت القيلولة. لا أحد في سان كريستوبال. جلسنا على طاولة بالقرب من النوافذ الملوّنة التي جعلت القاعة في غبشة. كان الجو باردًا، مثل قاع حوض السمك.

«إنه حلم سيئ. مجرد حلم سيئ...».

بالكاد أدركت أنني كنت أقول ذلك بصوت عالٍ. جثة لودو. ف. الملقاة على السجادة والضوء الذي لم نطفئه في الشقة... وضعت يدها على يدي. قالت لي بصوت منخفض:

«لا تفكّر في الأمر بعد الآن».

حتى ذلك الحين، كان لديّ انطباع بأنها هي نفسها تريد تجنُّب التفكير في الأمر، وفي الأيام الأولى، لم أجرؤ على الاعتراف لها بأنني أقرأ الصحف كل صباح؛ خوفًا من العثور على أي خبر صغير يكتب فيه اسم و ف. لكنها كانت تشاركني نفس القلق. لم نكن بحاجة لأن نخبر بعضنا بعضًا، كان يكفينا تبادل النظرات. في المساء، على سبيل المثال، عندما عدنا إلى شارع جونو، في فندق ألسينا، وعند ركوب المصعد. كان عبارة عن مصعد خشبي فاتح اللون له بابان زجاجيان، مثل الذي لا يزال موجودًا في ذلك الوقت. صعد ببطء شديد لدرجة أنه كاد يتوقف بين طابقين. كنت أخشى أن يكون هناك شرطي ينتظرنا خارج باب الغُرفة، بينما كان

آخر متمركزًا في الطابق السفلي، في استقبال الفندق. وهم نفس الذين يترددون على مقاهي ساحة القديس ميشيل. تمكّنت من التعرف عليهم من خلال استراق السمع لمقتطفات من المحادثات. لقد كنت أنا ممّن يبحثون عنه؛ لأنهم يعرفون اسمي. لم يكن هناك ما تخشاه. أردت أن أخبرها بذلك في المصعد، لكننا وصلنا إلى طابقنا. لا أحد عند الباب. ولا في الغُرفة. سيكون ذلك لوقت آخر. لقد تمكّنتُ مرة أخرى، بالكاد، من تحويل الحلم، متبعًا نصائح هيرفيه دو سان ذني.

في المساء، ذهبنا إلى مطعمين: أحدهما بين زاوية شارع كونستانس وشارع جوزيف دو ميستر، والآخر، في نهاية شارع كولينكور، عند أسفل درج. كان هناك الكثير من الناس في كل من هذين المطعمين، وهذا يتناقض مع الشوارع المهجورة خلال النهار. لم يلحظنا أحد بين كل هؤلاء الناس، وكان ضجيج أحاديثهم يحمينا. كانت تأتي الزبائن حتى منتصف الليل، ووضعت الطاولات على الرصيف. بقينا هناك حتى وقت متأخر قدر الإمكان بين كل رؤاد المطعم، هؤلاء الذين بدوا وكأنهم مصطافون. على أية حال، نحن أيضًا، كنا في إجازة. قرابة الساعة الواحدة صباحًا، عندما عدنا إلى فندق ألسينا، التقت أعيننا. سيكون عليك أن تأخذ شارع جونو المهجور، وتعبر رواق الفندق دون أن تعرف من كان في مكتب الاستقبال. في ذلك الوقت، تجنّبنا ركوب المصعد. في اللحظات الأولى، لم نكن مطمئنين للغاية من خلال صمت الغرفة. وقفت خلف الباب أسترق السمع لوقع الخطوات في الردهة الطويلة. باختصار، عندما كان هناك الكثير من الناس من حولنا، في المساء، في المطعمين، شعرنا براحة أكبر، مثل اثنين من المصطافين من بين الآخرين الذين قضوا اليوم بأكمله على شاطئ بامبيلون. يمكننا حتى أن نتحدث عن الموضوع الحساس الذي يهمّنا. ضاعت أصواتنا وسط ضجيج الأصوات الأخرى، وحرصنا على تجنّب الكلمات الدقيقة للغاية، والتعبير عن أنفسنا بعبارات مبهمة؛ حتى لا يفهم جيراننا الجالسون إلى الطاولة شيئًا ذا أهمية ممّا كنّا نقوله، إذا حدث، بالمصادفة وأعاروا السمع بغير قصد إلى كلماتنا. تحدثنا عن طريق تخطي بعض الكلمات، مع علامات الحذف. كنت أودّ منها أن تعطيني معلومات إضافية بخصوص لودو. ف، لأنني كنت مقتنعًا بأنها تعرف عنه أكثر ممّا تريد أن تقوله. بدا لي أن لقاءهما الأول في محل العطور في شارع بونتيو لم يكن مطابقًا للحقيقة تمامًا. كنت على يقين من أن هناك بعض التفاصيل المفقودة. لكني شعرت

بالتحفظ من جانبها في الرّدّ عليّ. والحقيقة أن ما يقلقني هو أنه تمّ الربط بينها وبين منْ أسميناه «الميت». هل كان هناك أي دليل ملموس على أنها كانت تتردّد على «الميت»؟ رسالة؟ اسمها وعنوانها الذي ربما دوّنه في مفكرته؟ ما الشهادة التي سيدلي بها الآخرون إذا تم سؤالهم عنها وعن علاقتها بـ«الرجل الميت»؟ على كل سؤال من أسئلتي، اكتفت بهزّ كتفيها. لا يبدو أنها تعرف جيدًا أولئك الذين كانوا يترددون على حفلات مساء الأحد في 2 شارع رودان، في منزل مارتين هيوارد. لدرجة أنه لما ذكرت لها أسماء أندريه كارفيه، وجي لافيني، وروجيه فافار وزوجته، فنسين بيرلين، وماريون لو فات- فينه؛ هذه الأسماء القليلة التي كتبتها على هامش إحدى الصحف، والتي استخرجتها للمرة الأخيرة من العدم- كانت في كل مرّة تهزّ رأسها بعلامة النفي. علاوة على ذلك، أخبرتني أن كل هؤلاء الأشخاص لا يعرفون عنها شيئًا، ولا يمكنهم الإدلاء بأية شهادة عنها. انحنت نحوي، وكأنها تريد أن تقول شيئًا بصوت خفيض، لكن ذلك كان احترازًا غير ضروري: فجيراننا يتحدثون بصوت عالٍ للغاية، وفي تلك اللحظة، كان صوت عازف الجيتار الذي يأتي كل ليلة في الوقت نفسه ليؤدي أمام المطعم في شارع كولينكور، أغنية نابولية لروبرتو موروكو: (القلب والروح Anema'e core) مختلطًا بصخب المحادثات. همست لي:

«لم يكن عليك كتابة اسمك على استمارة الفندق».

أحاول أن أتذكّر حالتي الذهنية في تلك اللحظة. في اليوم التالي، عندما كنت وحدي في المقهى في شارع سان ميشيل، كانت قد انتابتني حالة هلع، لكنها لم تدم طويلًا. وبعد أن وصلت إلى القاع، صعدت إلى السطح. حدثت نفسي:

الآن ستكون هذه بداية حياة أخرى بالنسبة إليّ. وما عشته حتى ذلك الحين بدا لي وكأنه حلم مشوّش استيقظت منه للتو. وفجأة فهمت معنى هذا التعبير:

«المستقبل ينفتح أمامك».

نعم، انتهى بي الأمر إلى إقناع نفسي بأنني، من قمة المستقبل، لم يعُد لديّ ما أخشاه، وأنني من الآن فصاعدًا صرت محصّنًا بلقاح أو بحماية جواز سفر دبلوماسي.

قلت لها:

- لن أخاطر بأي شيء بعد الآن. لم يبق شيء.

ولا بُدّ أن لهجتي كانت حادّة جدًا لدرجة أن أقرب جار لنا إلى الطاولة، وهو رجل أشقر في الأربعينات من عمره، والذي قد يكون أحد ضباط الشرطة الذين رأيتهم في مقاهي ساحة سان ميشيل، نظر إليّ بقوة. نظرت إليه وابتسمت له.

وبعد ظُهر أحد الأيام، أرادت الذهاب لإحضار بعض الأشياء من منزلها في سان مور. كان هذا هو اليوم الوحيد الذي غادرنا فيه مونمارتر في ذلك الصيف. كنا ننتظر القطار على رصيف محطة الباستيل.

- هل تعتقد أن الذهاب إلى هناك ليس مخاطرة كبيرة؟

سألتني.

- ربما وجدوا عنواني.

في تلك اللحظة، لم يكن لديّ أي خوف مُحدّد.

- لم يتعرّفوا عليك. من المستحيل بالنسبة إليهم معرفة عنوان شخص مجهول.

أومأت برأسها كما لو أن ما قلته للتوّ بدا لها فجأة دليلًا. كرّرت على نفسها «شخص مجهول» مرتين أو ثلاث مرات؛ لا شك لإقناع نفسها بأنها لا تخاطر بأي شيء، وأنها ستبقى مجهولة حتى النهاية.

كنا وحدنا في المقصورة. أحد أيام الأسبوع، خارج ساعة الذروة في فترة ما بعد الظهر، في عِزّ الصيف. في الليلة التي التقينا فيها في شقة مارتين هيوارد، مشينا قرابة الساعة إلى ساحة ألما. استقلت سيارة أجرة لتعود إلى منزلها في سان مور، وحدّدت لي موعدًا في اليوم التالي هناك، وكتبت عنوانها على قطعة من الورق: 35، شارع دو نور. وفي اليوم التالي، وجدت نفسي في نفس القطار، في الوقت نفسه من فترة ما بعد الظهر، على نفس الطريق الآن: الباستيل. سان مانديه. غابة دو فينسان. نوجن سور- مارن. سان- مور.

سرنا في شارع دو نور الذي تصطفُّ على جانبيه الأشجار التي شكّلت أوراقها

قوشا. كان مهجوزًا بعد ظهر ذلك اليوم، مثل شوارع مونمارتر. بقع من ضوء الشمس وظلال الفروع على الرصيف والطريق. في المرة الأولى التي أتيت فيها إلى هنا، قبل أسبوعين، كانت تنتظرني أمام منزلها. مشينا إلى لا فارين سان هيلير وشرفة أحد الفنادق الذي يقع على ضفاف نهر المارن، يدعى لو بُتي ريتز.

هذه المرة، تردّدت للحظة قبل أن تفتح البوابة، ونظرت إليّ بنظرة قلقة. لقد شعرت بنفس الخوف المؤقت الذي سيطر علينا ليلًا في مونمارتر ونحن عائدون إلى فندق ألسينا. حديقة مهجورة. كان العشب قد اجتاح الممر المؤدي إلى عتبة المنزل. كانت تشكّل الحديقة ما يشبه الوادي، بينما يقع المنزل أسفل منتصف المنحدر، لدرجة أننا لم نتمكّن من تمييز الطابق الأرضي على الفور. كان هذا المنزل في وضع غير مستقر، وبدا تحت رحمة الانهيار الأرضي. كان مظهره عبارة عن فيلا ومنزل في إحدى الضواحي. طلبت مني أن أنتظرها في الطابق السفلي لحين جمع أغراضها. غرفة كبيرة. قطعة الأثاث الوحيدة كانت أريكة. تطل النوافذ، من جهة، على منحدر العشب الذي يحجب الأفق، ومن جهة أخرى، على نوع من الأرض القاحلة في أسفل هذا المنحدر. لقد شعرنا حقًا أن المنزل كان في حالة توازن هشّ، وأنه معرّض لخطر السقوط في لحظة أو أخرى. ومن جهة أخرى، كان الصمت عميقًا لدرجة أنني بعد ربع الساعة خشيت أن تكون قد تهرّبت مني، كما كنت أفعل كثيرًا أنا نفسي قائلًا:

«انتظر، سأعود».

بينما كنت أصل إلى مبنى ذي مخرجين، وهو مبنى ساحة سان ميشيل؛ حيث يمكن للمرء الهروب عبر شارع هيروندل، ورقم 1 في شارع لورد بيرون الذي يقودك عبر متاهة من الممرات والمصاعد المؤدية إلى شارع الشانزليزيه.

لقد عادت إليّ في اللحظة التي كنت متأكّدًا فيها أنها كانت قد اختفت، وكنت على وشك الصعود إلى الطابق الأول للاطمئنان عليها. كانت تحمل حقيبة جلدية سوداء. جلست بجواري على الأريكة. وفجأة، شعرتُ أن نفس الفكرة خطرت في ذهنينا: جثة لودو. ف. في شقة شارع رودان.

****

كنت قد حملت حقيبتها التي كانت ثقيلة للغاية، وسرنا في شارع دو نور مرة أخرى. لقد شعرتُ بالارتياح؛ لأنها غادرت هذا المنزل. وكذلك أنا. هناك أماكن لا تحذر منها من النظرة الأولى بسبب مظهرها العادي والتي، بعد لحظات قليلة، تمنحك مشاعر سيئة. ولقد كنت دائمًا حساسًا لما نسميه «روح المكان». إلى حد تركها بأسرع ما يكون إذا شعرت بأدنى شك، مثل تلك الظهيرة الشتوية في مقهى لا سورس عندما كنت بصحبة شقيق جنيفيف دالام وصديقه الذي ذو وجه خادم فندق عجوز. أردت أيضًا التعمق في بحث المسألة بشكل أكبر من خلال وضع قائمة، في دفاتر ملاحظاتي، بكل هذه الأماكن وهذه العناوين المحددة التي قررت ألا أطيل فيها. هذه موهبة خاصة، حاسة سادسة تمتلكها كلاب الكمأة(10)، على سبيل المثال، وخاصة باستحضار أيضًا أجهزة معيّنة مثل أجهزة كشف الألغام. وعلى مدى السنوات القليلة التالية، أدركت أنني لم أكن مخطئًا بشأن معظم هذه الأماكن والعناوين. الأسباب التي جعلت المشاعر السيئة تطفو هناك، كنت قد تعلّمتها من خلال شهادات بالمصادفة، وتداخلات متبادلة، وأخبار الحوادث القديمة، غالبًا بعد عشرين أو ثلاثين عامًا، وحتى في بعض الأحيان كانت بضع كلمات سمعتها في منعطف محادثة في مقهى كافيه.

****

كنت أتوقّف من وقت لآخر في جادّة دو نور، وأضع حقيبتها على الرصيف.
Telegram:@mbooks90
لقد كانت هذه الحقيبة ثقيلة جدًا. انتهى بي الأمر بسؤالها عمّا إذا كانت وضعت جثّة لودو. ف. فيها. ظلّت غير متأثرة، لكن يبدو أنها لم تستحسن هذه المزحة. مزحة؟ أحيانًا، في أحلامي، وحتى الآن وأنا أكتب، أشعر بثقل هذه الحقيبة في يدي اليمنى، مثل جرح قديم ملتئم، لكن يثب عليك ألمه في الشتاء أو في الأيام الممطرة. ندم قديم؟ لقد طاردني دون أن أتمكّن من تحديد السبب. وفي أحد الأيام، كان لديّ حدس أن هذا السبب يعود إلى ما قبل ولادتي، وأن الندم كان قد انتشر على طول فتيل ديناميت. حدسي كان سريع الزوال، عود ثقاب يتوهّج لهبه الصغير لثوانٍ معدودة في الظلام قبل أن ينطفئ...

كان الطريق لا يزال طويلًا حتى محطة لا فارين؛ حيث كنت قد وصلت من باريس في يوم لقائنا الأول. اقترحت عليها أن نقضي نهاية النهار والليل في فندق

لو بيتي ريتز، وهو ما فعلناه قبل أسبوعين. لكنها ذكّرتني بأنني ملأت استمارة لو بيتي ريتز موضحًا فيها اسمي، كما حدث في تلك الليلة في فندق مالاكوف. من ناحية أخرى، كان يتعرف عليها مستخدمو فندق بيتي ريتز بمجرد رؤيتها. كان من الأفضل أن تجعلنا ننسى.

وأتساءل عمًا إذا كانت الذكرى البعيدة والمشوّشة لظهيرة صيفية أمضيتها في سان مور لم تجعلني أكتب، بعد ستة وأربعين عامًا، في دفتر ملاحظات بتاريخ 26 ديسمبر 2011: هذه الأسطر القليلة:

«حلم. أنا في حضور مفوض الشرطة الذي سلّمني استدعاءً على ورق مصفرة قديمة. الجملة الأولى تذكر جريمة يجب أن أشهد عنها. لا أريد قراءة هذه الصفحات. لقد أضعتها. علمت لاحقًا أن الأمر يتعلق بفتاة من سان مور ديه فوسيه قتلت رجلًا أكبر منها في مارلي لو روا. لا أعرف بأية صفة أنا شاهد!

هذا يتوافق مع حلم مُتكرِّر: لقد اعتقل بالفعل أشخاصًا معينين، ولم يتعرفوا عليّ. وأنا أعيش تحت تهديد الاعتقال أيضًا عندما يُكتشف أن لي صِلات مع 'المذنبين'، لكن مذنبين بمَ؟».

في العام الماضي، داخل ظرف كبير، بين جوازات سفر من الورق المقوّى باللون الأزرق الداكن منتهية الصلاحية ونشرات من دار للأطفال ومن كلية في هوت-سافوا حيث كنتُ مقيمًا، عثرت على أوراق مكتوبة على الآلة الكاتبة.

في البداية، تردّدت في إعادة قراءة هذه الصفحات القليلة من الورق المقوّى المثبَت بمشبك ورق صدئ. أردت التخلُّص منه على الفور، ولكن بدا لي الأمر مستحيلًا، مثل هذه النفايات المشعّة التي لا فائدة من دفنها على عمق مائة متر تحت الأرض.

الطريقة الوحيدة لنزع فتيل هذا الملف الرقيق بشكل نهائي هي «نسخ مقتطفات منه ومزجها» بصفحات رواية كما فعلت قبل ثلاثين عامًا؛ وبالتالي لن نعرف هل تنتمي إلى الواقع أم إلى عالم الأحلام. اليوم، 10 مارس 2017، فتحت الملف الأخضر الشاحب مرة أخرى، وأزلت مشبك الورق الذي ترك بقعة صدأ على الورقة الأولى، وقبل أن أمزّق الملف بأكمله دون أن أترك أي أثر مادي، سأنسخ بعض الجُمل

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

وستكون نهايته.

في الورقة الأولى: 29 يونيو 1965. الشرطة القضائية. الفرقة الاجتماعية. التصنيف 29: موضع أغلفة القذائف. غثر على أغلفة القذائف الثلاثة التي تتطابق مع الرصاصات الثلاث التي أطلِقت...فيما يتعلّق بالفرضيات التي يمكن طرحها حول طريقة مقتل السيد لودوفيك ف...

في الورقة الثانية: 5 يوليو 1965. الشرطة القضائية. الفرقة الاجتماعية.

كان لودوفيك ف. المزعوم يستخدم هذا الاسم المستعار منذ قرابة عشرين عامًا. يقول باولز:

«سيكون في الواقع شخص يُدعى أكسل ب.». من مواليد 20 فبراير 1916 في فريدريكسبيرج (الدنمارك). بدون مهنة. هارب منذ أبريل 1949 وأقام في باريس (الدائرة السادسة عشرة). آخر عنوان معروف: 48 شارع ديه بيل فوي.

في الورقة الرابعة: 5 يوليو 1965.

ملحوظة

الشرطة القضائية.

الفرقة الاجتماعية.

جان د.

من مواليد 25 يوليو 1945 في بولونيا - بيانكور (السين).

... غثر على استمارتين للفندق باسم جان د.، وكان قد ملأهما في شهر يونيو الماضي:

7 يونيو 1965: فندق ومطعم لو بيتي ريتز، 68، شارع 11 نوفمبر، في لا فارين سان -هيلير (سين – و- مارن).

28 يونيو 1965: فندق مالاكوف، 3، شارع ريمون بوانكاريه، باريس الدائرة 16، حيث أشار إلى عنوان منزله على أنه 2، شارع رودان (الدائرة 16).

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

في فندق بيتي ريتز، كما هو الحال في فندق مالاكوف، كانت برفقته فتاة صغيرة تبلغ من العمر قرابة عشرين عامًا، متوسطة الطول، سمراء، فاتحة العينين، ويتوافق وصفها مع ما ورد في إفادته م. ر.، البواب، 2، شارع رودان، باريس الدائرة 16.

حتى الآن لم يتم التعرف على هذه الفتاة الصغيرة.

وعلى الرغم من أنه لم يتم التعرف عليها مطلقًا، إلا أنني وجدت أثرها بعد عشرين عامًا. ظهر اسمها في دليل باريس لذلك العام، وهو اسم العائلة واسمها الذي لا يمكن أن يكون إلا اسمها. 76، شارع سيروريبه، الدائرة 19، 68.76.208.

كان أغسطس. لم يرد الهاتف. وقفت عدة مرات، في وقت متأخر من بعد الظهر، أمام المبنى المشيد بالقرميد، والذي تمتدّ خلفه ساحة لا بوت دو شابو روج. لم أكن أعرف هذا الحي. الآخرون هم مَن يُعرّفونك على أكثر المناطق السرية والنائية في مدينة، من خلال مواعدتك في هذا العنوان أو ذاك. عندما يختفون، يقودونك إلى آثارهم. في نهاية فترة ما بعد الظهر، عند أسفل منحدر شارع سيروريبه، كان لديّ انطباع بأن الزمن قد توقف. الشمس والصمت، زرقة السماء، لون المبنى الأصفر، خضرة الأشجار في الحديقة... كل هذا شكّل تباينًا، في ذاكرتي، مع حوض لا فيليت أو قناة أورك، الواقعتين أبعد قليلًا في نفس المنطقة، واللذان اكتشفتهما ذات ليلة في شهر ديسمبر بفضل مدام هوبرسن.

لم يتغير شيء بالنسبة إليّ. في ذلك الصيف، انتظرت أمام باب أحد المباني، كما انتظرت على الرصيف، قبل خمسة وعشرين عامًا، في الشتاء، ابنة ستيوبا. لو سألني أحد:

«ولأي غرض كل هذا؟»، أعتقد أنني كنت سأجيب ببساطة: «لمحاولة حل ألغاز باريس».

بعد ظُهر أحد أيام نهاية شهر أغسطس، تعرّفتُ على صورتها الظلية من بعيد، في أعلى شارع سيروريبه. لم يفاجئني هذا. كل ما يتطلبه الأمر هو القليل من الصبر. تذكرت كتبي الموجودة بجانب السرير في الفترة التي كنا نعرف فيها بعضنا بعضًا: الأبدية بالنجوم والعود الأبدي لنفس الشيء... كانت تنزل على المنحدر، وفي يدها

حقيبة، لكنها لم تعد تلك الحقيبة الجلدية السوداء التي حملتها إلى محطة لافارين. حقيبة من القصدير. جمعت أشعة الشمس. التحقتُ بها في منتصف الطريق على طول شارع سيروربيه.

تناولت منها الحقيبة. لم نكن بحاجة إلى التحدث مع بعضنا بعضًا. غادرنا سيزا على الأقدام من سان مور، 35، جادة دو نور، واستغرقنا عشرين عامًا للوصول إلى 76، شارع سيروربيه. بدت الحقيبة أخفّ بكثير من الأخرى. خفيفة جدًا لدرجة أنني تساءلت عمّا إذا كانت فارغة. مع مرور السنين، لا شك أنك ستتخلّص من كل الأثقال التي كنت تجرّها خلفك، ومن كل الندم.

لقد لاحظت ندبة على جبهتها. قالت لي: «حادث سيارة. واحدة من تلك الحوادث التي تجعلك تفقد ذاكرتك»، ومع ذلك، فقد تعرّفت عليّ. لكن لا يبدو أنها تتذكر أحداث صيف 1965.

كانت عائدة من الجنوب، وعرضت عليّ أن أرافقها إلى منزلها. كان بإمكاننا أن نسير في منتصف الجادة بعد ظهر ذلك اليوم؛ لأنها كانت مهجورة، مثل شوارع مونمارتر في الماضي، في الوقت نفسه وفي نفس الفصل. وبالنسبة إليّ، امتزج هذان الصيفان.

بين صفحات إحدى الروايات اكتشفت ورقة أجندا تحمل تاريخ الأربعاء 20 أبريل وبها إشارة «سان أوديت»، لكن دون رقم السنة. الرواية تحمل عنوان زمن روما Tempo di Roma ويبدو لي أنني كنت قد قرأتها في نهاية الستينيات. في ذلك الوقت، لا بُدّ أنني استخدمت هذه الورقة كإشارة مرجعية. أو ربما اشتريت هذا الكتاب مستعملًا من على الأرصفة، وكانت الورقة موجودة بداخله بالفعل. كان مكتوب عليها خط سير رحلة بالحبر باللون الأزرق شفي «فلوريد»:

الطريق السريع الجنوبي أو الوطني 7.

أو محطة ليون

نيمور. موريه

الخروج إلى نيمور

اجعل نيمور إلى اليمين

طريق شنس، لمسافة 10 كم

انعطف يمينًا

ريموفيل

آخر بيت في القرية على اليمين قبالة الكنيسة

البوابة الخضراء 525.66.31

432.56.01

لم يغد هناك ردٌ من كلا الرقمين. وفي كل مرة كنت أقوم بطلبهما، كنت أسمع أصواتًا بعيدة جدًا تُجري مكالمات أو تكمل محادثة لم أتمكن من التقاط كلمة واحدة منها. أعتقد أن هذه الأصوات تنتمي إلى«شبكة» سرية من الأشخاص الذين استغلوا ذات يوم فراغ خطوط الهاتف المهجورة للتواصل مع بعضهم البعض.

من الممكن أن يكون خط اليد غير المنتظم بالحبر الأزرق هو خطي، ولكن بعد ذلك كنت سأكتب خطّ الشير هذا على عجل، بناء على تعليمات متعجّلة لشخص لم يكن لديه الوقت الكافي لنقلها إليّ، أو «كان يفعل ذلك بصوت خفيض». حتى لا يلفت الأنظار إلينا.

لعدة أشهر، كنت أرغب في الوصول إلى جوهر الأمر، لكنني كنت أؤجّل فكرة الذهاب إلى الأماكن. ومن جهة أخرى، لا بُدّ أن هذه الأماكن قد تغيّرت، أو اختفت، أو ظلت غير قابلة للوصول إذا لم تستشر خرائط العمليات القديمة.

واليوم، لقد قرّرتُ، سأتبع هذا الطريق حتى النهاية. خلال الأشهر القليلة الماضية، كنت أتساءل عمّا إذا لم أكن قد فعلت هذا بالفعل في الماضي؛ لأن اسم «نيمور» كان يعني شيئًا بالنسبة إليّ. ربما لم أواصل طريقي إلى ما بعد نيمور. أو قرين لي ذهب إلى آخر بيت في القرية والبوابة الخضراء. لفظة قرين أو شبيه هي ما ورد في كتاب الأبدية بالنجوم، أحد كتبي الموجودة بجانب السرير. ألف وألف شبيه لك يسلكون آلاف المسارات التي لم تسلكها في مفترق طرق حياتك، وأنت، بينما كنت تؤمن أنه لا يوجد سوى طريق واحد.

من بين خرائط العمليات القديمة التي كنت قد اشتريتها منذ ما يقرب من خمسين عامًا، وجدت خريطة المناطق المحيطة بينمور. لقد كانت تشير إلى الطرق والمسارات والقرى التي لم تعد تظهر على خريطة ميشلان الحالية لنفس المنطقة. لكن كان عليّ أن ألتزم بالخريطة الأولى إذا أردت الوصول إلى الهدف.

فضّلت المغادرة قرابة الساعة الخامسة مساءً. كان ذلك في أوائل شهر سبتمبر، وكان ضوء النهار لا يزال ينقضي متأخرًا. لتجنّب خطر الضياع؛ أكملت المسار الذي ظهر في ورقة الأجندا، من خلال الرجوع إلى خريطة العمليات القديمة. لقد خططت لبعض الانعطافات لمعرفة التضاريس بشكل أفضل، وبالتالي الانخراط في طرق متتالية.

Telegram:@mbooks90

نيمور. موريه

مُرّ عبر فينو- ليه- سابلون (رقم 6)

وبعد موريه، اسلك وادي أورفان

اعبر لوريه لو بوكاج(د218)

دورميل

ثم ارجع إلى نيمور

اجعل نيمور على اليمين

واذهب عبر لافيرسان

طريق دو شنس، لمسافة 10 كم

اقطع طريق مقاطعة بازوش سير لو بيتز ومزرعة بالون 104

غذ عبر إجروفيل وشينترو ريموفيل

آخر منزل في القرية، على اليمين، قبالة الكنيسة

منحدر فيو لافوار حتى البوابة الخضراء.

ممرٌ شجريٌ. قلعة لا بيل في الغابة النائمة.

كان خط يدي أقوى بكثير من الحبر الأزرق الموجود على صفحة الأجندا. عندما حذدث المسار، بدا الأمر كما لو كنت قد اتبعته بالفعل، ولم أغد بحاجة إلى الرجوع إلى خريطة العمليات القديمة. ولكن هل كان هذا حقًا هو الطريق الصحيح؟ في ذكرياتك تتداخل صور الطرق التي سلكتها، ولم تغد تعرف أي المقاطعات عبرتها.

---

(1)- منظمة الجيش السري الفرنسية: Organisation de l'armée secrete هي منظمة فرنسية يمينية متطرفة، أسست 1961. تهدف لإبقاء الجزائر تحت الحكم الفرنسي. (الناشر)

(2)- الشرطة الموازية: قوات مشكّلة من المدنيين المسلحين تأسست نهاية الخمسينات بدعم من مسؤولين رسميين فرنسيين كبار معارضين لاستقلال الجزائر؛ بهدف قمع الجزائريين. وهي تماثل فرق الموت في أمريكا اللاتينية، وتمّ حلّها رسميًا 1982 (الناشر)

(3)- لوحة المواصلات: لوحة مضيئة لإرشاد الركاب لمسار خطوط المواصلات المختلفة في باريس.

(4)- هانز فلادا: صحفي ألماني (1893-1947) من أشهر رواياته «ماذا بعد، أيها الرجل الصغير»، و«ذئب بين ذئاب»، ويعتبر من أشهر كتّاب القرن العشرين. (الناشر)

(5)- المكتبة الخضراء هي سلسلة فرنسية لكتب للأطفال تمّ إنشاؤها في عام 1923 بواسطة دار هاشيت، تتميز الكتب بغلافها الأخضر. ولقد حققت الكتب نجاحًا تجاريًا؛ حيث كانت الأكثر شهرة بين عامي 1955 و1980. (المترجم)

(6)- بوليدور: شركة تسجيلات تملكها مجموعة يونيفرسال ميوزيك. (الناشر)

(7)- إميل ستيرن: ملحن وكاتب أغاني فرنسي 1913-1997. (الناشر)

(8)- ماريا ي ناجولوسكا (1883-1936): صحفية وكاتبة مهتمة بالتنجيم وعلم الممارسات الطقسية السحرية الجنسية، كذلك اهتمت بالتنجيم وارتبطت بالحركة الباريسية.

(9)- ماريا تالشيف (1925- 2013): ولدت في فيرفاكس أوكلاهوما، أول راقصة باليه أمريكية، رقصت حول العالم، حصلت على مرتبة الشرف من مركز كينيدي.

(10)- كلاب الكمأة: كلاب تشير لسيدها بحاسة قوية لعطر الكمأة الثمين. (الناشر)

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨
CamScanner المسوحة ضوئيا بـ